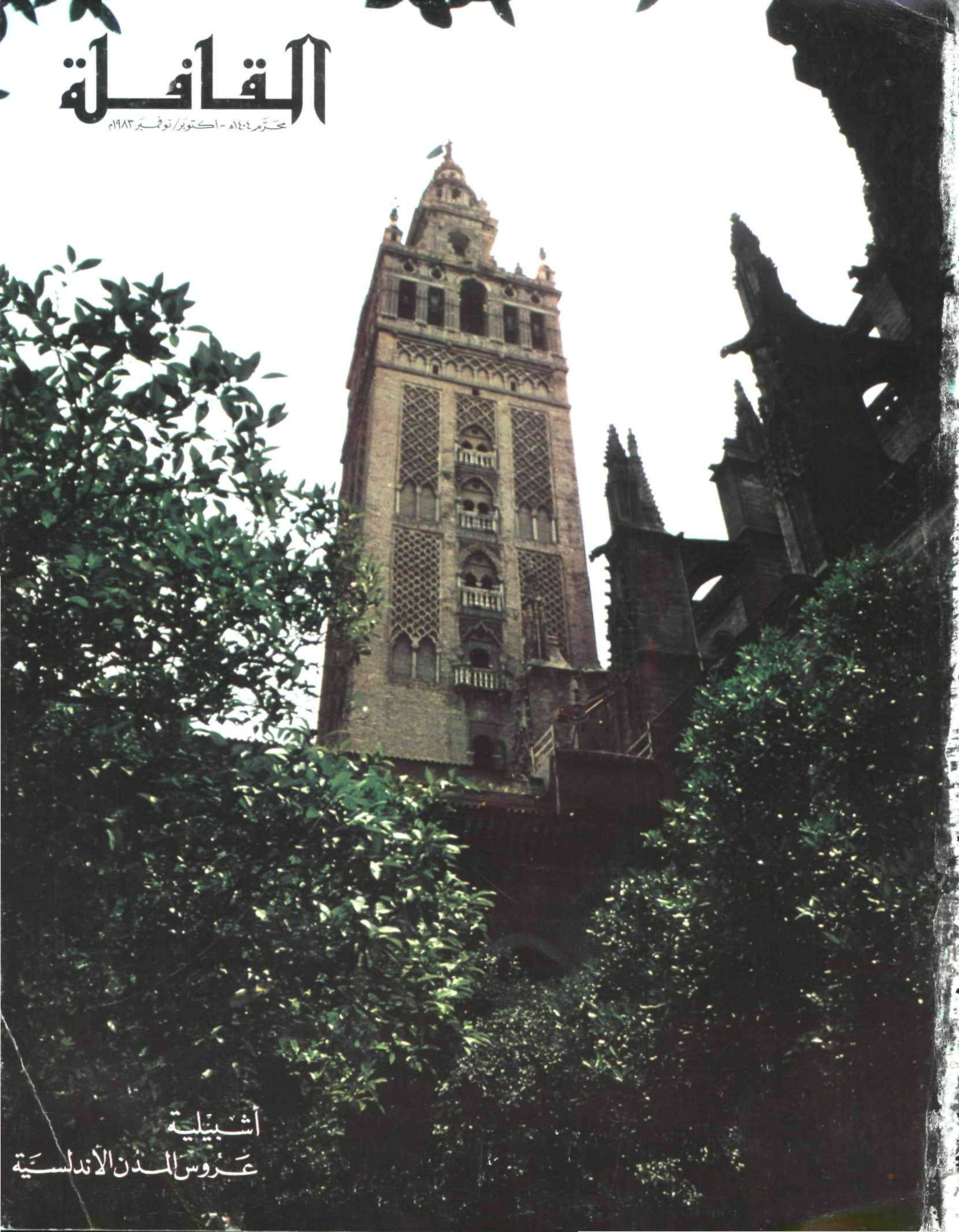


القافلة
محرم ١٤٠٤هـ - اكتوبر/نوفمبر ١٩٨٣م
أشبيلية
عروس المدن الأندلسية

بسم الله الرحمن الرحيم

القافلة

- جميع المراسلات باسم رئيس التحرير.
- كل ما ينشر في القافلة يعبّر عن آراء الكتاب أنفسهم ولا يعبّر بالضرورة عن رأي القافلة أو عن اتجاهها.
- تجوز إعادة نشر المواضيع التي تظهر في القافلة دون إذن مسبق على أن تذكر كمصدر.
- لا تقبل القافلة إلا المواضيع التي لم يسبق نشرها.

العدد الأول / المجلد الثاني والثلاثون

محرّم ١٤٠٤هـ - اكتوبر/ نوفمبر ١٩٨٣م

تصدر شهريًا عن شركة أرامكو لموظفيها
إدارة العلاقات العامة

العنوان

صندوق البريد رقم ١٣٨٩
الظهران - المملكة العربية السعودية

توزّع مجانًا

المدير العام : فيصل محمد البسام
المدير المسؤول : إسماعيل إبراهيم نواب
رئيس التحرير : عبدالله حسين الغامدي
المحرر المساعد : عوني أبو كشك

صورة الغلاف:

منارة المنصور في مدينة اشبيلية، وقد أصبحت اليوم برج أجراس يدعى «لاخيرالدا».

تصميم وطباعة شركة مطابع المطوع - الدمام
DESIGNED AND PRINTED BY AL-MUTAWA PRESS CO. DAMMAM


١٢ العودة إلى المواقد القديمة


٢٤ أشبيلية .. عروس المدن الأندلسية

محرم					
	اكتوبر				نوفمبر
السبت		٢ ٨	٩ ١٥	١٦ ٢٢	٢٣ ٢٩
الأحد		٣ ٩	١٠ ١٦	١٧ ٢٣	٢٤ ٣٠
الاثنين		٤ ١٠	١١ ١٧	١٨ ٢٤	٢٥ ٣١
الثلاثاء		٥ ١١	١٢ ١٨	١٩ ٢٥	٢٦ ١
الأربعاء		٦ ١٢	١٣ ١٩	٢٠ ٢٦	٢٧ ٢
الخميس		٧ ١٣	١٤ ٢٠	٢١ ٢٧	٢٨ ٣
الجمعة	١ ٧	٨ ١٤	١٥ ٢١	٢٢ ٢٨	٢٩ ٤

صفر					
	نوفمبر				ديسمبر
السبت	١ ٥	٨ ١٢	١٥ ١٩	٢٢ ٢٦	٢٩ ٣
الأحد	٢ ٦	٩ ١٣	١٦ ٢٠	٢٣ ٢٧	٣٠ ٤
الاثنين	٣ ٧	١٠ ١٤	١٧ ٢١	٢٤ ٢٨	
الثلاثاء	٤ ٨	١١ ١٥	١٨ ٢٢	٢٥ ٢٩	
الأربعاء	٥ ٩	١٢ ١٦	١٩ ٢٣	٢٦ ٣٠	
الخميس	٦ ١٠	١٣ ١٧	٢٠ ٢٤	٢٧ ١	
الجمعة	٧ ١١	١٤ ١٨	٢١ ٢٥	٢٨ ٢	

جمادى الأولى					
	فبراير				مارس
السبت		٣ ٤	١٠ ١١	١٧ ١٨	٢٤ ٢٥
الأحد		٤ ٥	١١ ١٢	١٨ ١٩	٢٥ ٢٦
الاثنين		٥ ٦	١٢ ١٣	١٩ ٢٠	٢٦ ٢٧
الثلاثاء		٦ ٧	١٣ ١٤	٢٠ ٢١	٢٧ ٢٨
الأربعاء		٧ ٨	١٤ ١٥	٢١ ٢٢	٢٨ ٢٩
الخميس	١ ٢	٨ ٩	١٥ ١٦	٢٢ ٢٣	٢٩ ١
الجمعة	٢ ٣	٩ ١٠	١٦ ١٧	٢٣ ٢٤	٣٠ ٢

جمادي الثانية					
	مارس				ابريل
السبت	١ ٣	٨ ١٠	١٥ ١٧	٢٢ ٢٤	٢٩ ٣١
الأحد	٢ ٤	٩ ١١	١٦ ١٨	٢٣ ٢٥	٣٠ ١
الاثنين	٣ ٥	١٠ ١٢	١٧ ١٩	٢٤ ٢٦	
الثلاثاء	٤ ٦	١١ ١٣	١٨ ٢٠	٢٥ ٢٧	
الأربعاء	٥ ٧	١٢ ١٤	١٩ ٢١	٢٦ ٢٨	
الخميس	٦ ٨	١٣ ١٥	٢٠ ٢٢	٢٧ ٢٩	
الجمعة	٧ ٩	١٤ ١٦	٢١ ٢٣	٢٨ ٣٠	

رمضان					
	مايو				يونيه
السبت		٣ ٢	١٠ ٩	١٧ ١٦	٢٤ ٢٣
الأحد		٤ ٣	١١ ١٠	١٨ ١٧	٢٥ ٢٤
الاثنين		٥ ٤	١٢ ١١	١٩ ١٨	٢٦ ٢٥
الثلاثاء		٦ ٥	١٣ ١٢	٢٠ ١٩	٢٧ ٢٦
الأربعاء		٧ ٦	١٤ ١٣	٢١ ٢٠	٢٨ ٢٧
الخميس	١ ٣١	٨ ٧	١٥ ١٤	٢٢ ٢١	٢٩ ٢٨
الجمعة	٢ ١	٩ ٨	١٦ ١٥	٢٣ ٢٢	٣٠ ٢٩

شوال					
	يونيه				يوليه
السبت	١ ٣٠	٨ ٧	١٥ ١٤	٢٢ ٢١	٢٩ ٢٨
الأحد	٢ ١	٩ ٨	١٦ ١٥	٢٣ ٢٢	
الاثنين	٣ ٢	١٠ ٩	١٧ ١٦	٢٤ ٢٣	
الثلاثاء	٤ ٣	١١ ١٠	١٨ ١٧	٢٥ ٢٤	
الأربعاء	٥ ٤	١٢ ١١	١٩ ١٨	٢٦ ٢٥	
الخميس	٦ ٥	١٣ ١٢	٢٠ ١٩	٢٧ ٢٦	
الجمعة	٧ ٦	١٤ ١٣	٢١ ٢٠	٢٨ ٢٧	

ربيع الأول

	ديسمبر				يناير
السبت		٦ ١٠	١٣ ١٧	٢٠ ٢٤	٢٧ ٣١
الأحد		٧ ١١	١٤ ١٨	٢١ ٢٥	٢٨ ١
الاثنين	١ ٥	٨ ١٢	١٥ ١٩	٢٢ ٢٦	٢٩ ٢
الثلاثاء	٢ ٦	٩ ١٣	١٦ ٢٠	٢٣ ٢٧	٣٠ ٣
الأربعاء	٣ ٧	١٠ ١٤	١٧ ٢١	٢٤ ٢٨	
الخميس	٤ ٨	١١ ١٥	١٨ ٢٢	٢٥ ٢٩	
الجمعة	٥ ٩	١٢ ١٦	١٩ ٢٣	٢٦ ٣٠	

ربيع الثاني

	يناير				فبراير
السبت		٤ ٧	١١ ١٤	١٨ ٢١	٢٥ ٢٨
الأحد		٥ ٨	١٢ ١٥	١٩ ٢٢	٢٦ ٢٩
الاثنين		٦ ٩	١٣ ١٦	٢٠ ٢٣	٢٧ ٣٠
الثلاثاء		٧ ١٠	١٤ ١٧	٢١ ٢٤	٢٨ ٣١
الأربعاء	١ ٤	٨ ١١	١٥ ١٨	٢٢ ٢٥	٢٩ ١
الخميس	٢ ٥	٩ ١٢	١٦ ١٩	٢٣ ٢٦	
الجمعة	٣ ٦	١٠ ١٣	١٧ ٢٠	٢٤ ٢٧	

رجب

	ابريل				مايو
السبت		٦ ٧	١٣ ١٤	٢٠ ٢١	٢٧ ٢٨
الأحد		٧ ٨	١٤ ١٥	٢١ ٢٢	٢٨ ٢٩
الاثنين	١ ٢	٨ ٩	١٥ ١٦	٢٢ ٢٣	٢٩ ٣٠
الثلاثاء	٢ ٣	٩ ١٠	١٦ ١٧	٢٣ ٢٤	٣٠ ١
الأربعاء	٣ ٤	١٠ ١١	١٧ ١٨	٢٤ ٢٥	
الخميس	٤ ٥	١١ ١٢	١٨ ١٩	٢٥ ٢٦	
الجمعة	٥ ٦	١٢ ١٣	١٩ ٢٠	٢٦ ٢٧	

شعبان

	مايو				مايو
السبت		٤ ٥	١١ ١٢	١٨ ١٩	٢٥ ٢٦
الأحد		٥ ٦	١٢ ١٣	١٩ ٢٠	٢٦ ٢٧
الاثنين		٦ ٧	١٣ ١٤	٢٠ ٢١	٢٧ ٢٨
الثلاثاء		٧ ٨	١٤ ١٥	٢١ ٢٢	٢٨ ٢٩
الأربعاء	١ ٢	٨ ٩	١٥ ١٦	٢٢ ٢٣	٢٩ ٣٠
الخميس	٢ ٣	٩ ١٠	١٦ ١٧	٢٣ ٢٤	
الجمعة	٣ ٤	١٠ ١١	١٧ ١٨	٢٤ ٢٥	

ذو القعدة

	يوليه				أغسطس
السبت		٧ ٤	١٤ ١١	٢١ ١٨	٢٨ ٢٥
الأحد	١ ٢٩	٨ ٥	١٥ ١٢	٢٢ ١٩	٢٩ ٢٦
الاثنين	٢ ٣٠	٩ ٦	١٦ ١٣	٢٣ ٢٠	
الثلاثاء	٣ ٣١	١٠ ٧	١٧ ١٤	٢٤ ٢١	
الأربعاء	٤ ١	١١ ٨	١٨ ١٥	٢٥ ٢٢	
الخميس	٥ ٢	١٢ ٩	١٩ ١٦	٢٦ ٢٣	
الجمعة	٦ ٣	١٣ ١٠	٢٠ ١٧	٢٧ ٢٤	

ذو الحجة

	أغسطس				سبتمبر
السبت		٦ ١	١٣ ٨	٢٠ ١٥	٢٧ ٢٢
الأحد		٧ ٢	١٤ ٩	٢١ ١٦	٢٨ ٢٣
الاثنين	١ ٢٧	٨ ٣	١٥ ١٠	٢٢ ١٧	٢٩ ٢٤
الثلاثاء	٢ ٢٨	٩ ٤	١٦ ١١	٢٣ ١٨	٣٠ ٢٥
الأربعاء	٣ ٢٩	١٠ ٥	١٧ ١٢	٢٤ ١٩	
الخميس	٤ ٣٠	١١ ٦	١٨ ١٣	٢٥ ٢٠	
الجمعة	٥. ٣١	١٢ ٧	١٩ ١٤	٢٦ ٢١	



الكلمة القرآنية

بقلم: د. أحمد جمال العمري / القاهرة

بلغ العرب — قبل الاسلام — مرتبة رفيعة من البلاغة والبيان، شهد بذلك القرآن العظيم في أكثر من موضع، من مثل قول الحق تبارك وتعالى: **(وان يقولوا تسمع لقولهم)**(١). وقوله سبحانه: **(ومن النّاس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا)**(٢).

كما صوّر القرآن شدة عارضتهم، وقوة لسنهم في الحجاج والجدل، بمثل قوله جل وعلا: **(فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد)**(٣) وقوله عز شأنه: **(ما ضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون)**(٤).

ومن أكبر الدلائل على بلاغتهم، وقوة تعبيرهم، وما حذقوه من حسن البيان، أن كانت معجزة الرسول الكريم — صلى الله عليه وسلم — وحجته القاطعة لهم، هي دعوتهم أقصاهم وأدناهم الى معارضة القرآن في بلاغته الباهرة، وهي دعوة تدل على ما أوتوه من اللسن والفصاحة، والقدرة على حوك الكلام، كما تدل على بصرهم بتمييز أقدار الألفاظ والمعاني، وتبيّن ما يجرى فيهما من جودة الافهام، وبلاغة التعبير.

دعاهم الرسول — صلى الله عليه وسلم — الى معارضة «معجزته الخالدة» وتحدّاهم أن يأتوا بمثله، وهو يعلم أنهم أفصح الفصحاء، ومصاقع الخطباء، وأمهلهم طول السنين، فلم يقدروا، ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله حين قالوا: (افتراه)، فأنزل الله عز وجل: **(أم يقولون افتراه، قل: فأتوا بعشر سور مثله)**(٥). فعجزوا. ثم تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة: **(وان كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله)**(٦) فلما عجزوا عن أن يأتوا بسورة تشبه القرآن — على كثرة الخطباء فيهم والبلغاء — قال رب العزة: **(قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)**(٧).

فقد ثبت أنه تحداهم به، وأنهم لم يأتوا بمثله لعجزهم عنه، لأنهم لو قدروا على ذلك لفعلوا، ولما عدلوا الى العناد تارة، والاستهزاء اخرى، فتارة قالوا (سحر)، وتارة قالوا (شعر)، وتارة قالوا (أساطير الأولين).. كل ذلك من التحيّر والانقطاع.

لقد كان معجزة الرسول الكريم معجزة عقلية معنوية، تخاطب القلب الانساني، وتحاج العقل البشري، وتتحداه الى الأبد، انها معجزة القرآن بعلومه ومعارفه، وأخباره الماضية والمستقبلة. من هنا عكف العلماء — على تعاقب العصور — على دراسة وجوه الاعجاز في القرآن العظيم، خاصة بعد أن دخل الناس في دين الله أفواجا، وكان من بين الداخلين أناس من الفرس والروم وغيرهم، ممن كانوا في الأمصار الاسلامية، وراح الشعوبيون منهم يحاولون أن يضعوا من شأن القرآن، ومن بلاغة القرآن، فوجدنا علماء الاسلام يسيرون مسارات شتى، معظمها تتجه الى بلاغة القرآن ودقة نظمه.

فذهب الجاحظ (ت٢٥٥هـ) الى أن مرجع الاعجاز في القرآن الى نظمه، وأسلوبه العجيب، المباين لأساليب العرب في الشعر والنثر، وما يطوى فيه من سجع(٨).

ووقف الخطّابي (ت٣٨٨هـ) يتحدث عن الأقسام الثلاثة للكلام المحمود، ومراتبها في نسبة التبيان ودرجاتها في البلاغة «فمنها البليغ الرصين الجزل، ومنها الفصيح القريب السهل، ومنها الجائز الطلق الرسل. فالقسم الأول أعلى طبقات الكلام وأرفعه، والقسم الثاني أوسطه وأقصده، والقسم الثالث أدناه وأقربه، فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة، وأخذت من كل نوع من أنواعها شعبة، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة وهما على الانفراد في نعوتهما كالمتضادين، لذلك كان اجتماعهما في نظم القرآن فضيلة خص بها، يسّرها الله بلطيف قدرته من أمره، لتكون آية بيّنة لنبيّه»(٩).

وجاء الرماني (ت٣٨٦هـ) ليقرر أن البلاغة ثلاث طبقات، منها ما هو في أعلى طبقة، ومنها ما هو في أدنى طبقة، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة، فما كان في أعلاها طبقة فهو معجز، وهو بلاغة القرآن، وما كان منها دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس.»(١٠).

وجاء الباقلاني (ت٤٠٣هـ) بعدهم، ليقول: ان نظم القرآن خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلامهم، ومباين لأساليب خطابهم، ومن أدعى غير ذلك. لم يكن له بد من أن يصحح — انه ليس من قبيل الشعر، ولا من السجع، ولا الكلام الموزون غير المقفّى، فالقرآن الكريم متناه في البلاغة الى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه»(١١).

وتابعهم الجرجاني (ت٤٧١هـ) فركّز على موضوع «النظم»، وجعله المحور الأساسي الذي يدور حوله كل موضوع، وينتهي اليه كل طريق، لذلك كان النظم — من وجهة نظره — هو الوجه المشرق للاعجاز القرآني، أما بقية الأوجه، التي توصل اليها الباحثون والعلماء السابقون، وسجّلوها في مصنفاتهم ورسائلهم، فلم يعرها التفاتا، ولم يعطها اهتماما»(١٢) وكانت هذه الآراء والبحوث ارهاصا للبحث العلمي المنظم، الذي يربط بين أساليب البلاغة العربية والدراسات القرآنية.

هذه هي نظرة العلماء القدماء الى الاعجاز القرآني. شغلتهم المسائل الكبرى، والقضايا الكلية عن النظر في الجزئيات، شغلهم البناء الكلّي للقرآن العظيم، عن الالتفات الى لبنات هذا البناء. ان الشيء الذي فات هؤلاء العلماء وغيرهم، هو الحديث عن «الكلمة القرآنية». بوصفها آية من آيات هذا الاعجاز. كلهم وجّهوا انتباههم وأفكارهم صوب الاعجاز الكلي للقرآن، المضمون والمشمول، السور والآيات، وغفلوا عن الاعجاز الرائع الناجم عن الكلمة القرآنية،

الكلمة القرآنية

من حيث جرسها ووقعها، وموضعها ومدلولها..

وللحق نقول.. ان ذلك لم يكن قصورا منهم أو تقصيرا، ولكنه اهتمام بالكليات التي تضم تحت اعطافها الكثير من الجزئيات.

ان القرآن العظيم أولى الكلمة أهمية عظمى لا تقل عن الأهمية التي أولاها للعبارة، وحرص على أن تكون هذه الكلمة دقيقة في تصوير المعنى، الذي أراده الحق تبارك وتعالى، واضحة ناصعة، مباشرة، غنيّة بالمضامين، وحرص أيضا على أن تكون هذه الكلمة، مكملة للبناء الكلي للآية، وللسورة، وللقرآن جميعه، بما لها من ايحاء خاص، ومدلول عجيب.

ومن هنا كانت الكلمة القرآنية في مقدمة الوسائل التي جسّدت المعنويات في القرآن المجيد.

ان آيات القرآن الحكيم، رغم تكرار بعض المعاني فيها، وتشابه أساليب الخطاب، واتحاد الأفكار المشتملة عليها، الا انها تحتفظ لكل كلمة بدلالتها الواضحة، فلا يمكن أن نستعيض عن كلمة. خذ مثلا — قول الحق سبحانه: (**فالق الاصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم**)(١٣)، وابحث أيضا عن أي كلمة أخرى تضعها موضع (الاصباح) في دلالتها على الحركة والانبثاق، وفي بث حقيقة المعنى المطلوب، ثم فتّش في اللغة كلها، عن كلمة أخرى تضعها في مكان (سكنا) فيها هدؤها ولينها المنبعث من فتحاتها المتتابعة، وفيها ما تبثه من الصورة في الخيال والنفس، ثم ابحث ما شئت عن كلمة أخصر وأدل وأجمع من هذه الكلمة البليغة (حسبانا) ابحث عن كل ذلك، وقلّب الآية على ما تختاره وتراه من الوجوه، فستجد أن اللغة كلها أعجز من أن تأتي لك بألفاظ مثلها، أو خير منها، ومهما غيرت في الآية أفسدت من بهائها، ونقصت من روعتها واشراقها، وستجد أيضا أن كل كلمة من القرآن العظيم، انما تستقر في مكانة لا يطولها أي تغيير أو تحوير.

من هنا كان مرد البلاغة الكلامية في القرآن العظيم — انما ترجع الى الدقة المتناهية في مطابقة اللفظ للمعنى، ومدى القدرة الفائقة في تسخير اللفظ لتجلية المعنى، وعرضه في المظهر المطلوب، والمكان المناسب.

اننا اذا تأملنا الكلمة القرآنية، التي تتألف منها الجمل والآيات، رأيناها تمتاز الى جانب الايقاع الخاص في السمع، باتساقها الغريب مع المعنى، حتى لكأننا نحس باطلالة المعنى المطلوب، أو لكأن فيها اشراقا تتألق فيه صورة المعنى أمام أذهاننا وأبصارنا. أضف الى ذلك أننا نحسّ باتساع دلالتها لأشياء ومعان لا تتسع لها دلالات الكلمات الأخرى، من المعاني والمدلولات.. ورب معنى لا يستطيع الكاتب البليغ أن يعبر عنه الا ببضع كلمات أو جمل، يعبر عنه القرآن تعبيرا جميلا دقيقا بكلمة واحدة. وقد نجدها تتحلى بهذه الميزات جميعا باطراد، لا يتخلف، وذلك ما لا نراه الا في القرآن العظيم وحده.

فلنقرأ قول الحق — تبارك وتعالى — في وصف كل من الليل والصبح: (**والليل اذا عسعس، والصبح اذا تنفس**)(١٤) سنجد أن هناك تجسيما واضحا في كل من هاتين الكلمتين (عسعس) و(تنفس)، وسنجد أيضا، أن كل كلمة منهما تبعث في خيالنا صورة بارزة، محسوسة المعنى، دون ما حاجة للرجوع الى معاجم اللغة، ولن نجد في مقدورنا أن نصور اقبال ظلام الليل، وتمدّده في الآفاق، بكلمة أدل من (عسعس)، ولن نجد كلمة تصور انفلات الضحى من مخبأ الليل وسجنه أروع من (تنفس).

ولما أراد الحق — عزّ شأنه — أن يصوّر كيف أنه طبع الليل بالسواد والظلمة التامة — وهو معنى في مضمونه ومشموله غير المعنى السابق، عبّر عن ذلك بهذه الكلمة العجيبة في دلالتها على هذا المعنى وتصويره، وذلك في قوله تعالى:

(**أأنتم أشدّ خلقا أم السماء بناها، رفع سمكها فسوّاها، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها**)(١٥) اننا اذا تأملنا كلمة (أغطش) وتنبهنا الى طبيعة حروفها ووقعها في آذاننا، نجد أنها تقدم لنا مدلول معناها في تلافيف حروفها، قبل أن تقدمه لنا في معناها اللغوي المحفوظ.

ان طبيعة الكاتب، مهما كانت ثقافته، ومهما اتسعت دراسته، تجعله لا يستطيع أن يطوّع ألفاظ اللغة لكل ما يتصوره من دقائق المعنى، ولطائف الأخيلة، فهو كثيرا ما يضطر الى النزول عن بساط خياله المحلّق، لاحقا بكلمة هي دون خياله الخصيب، ولكنه لا يجد من حوله سواها، فيهبط الى مستواها، وبذلك تفسد تصوراته، ويفسد سير فكره.

بيد أن القرآن الكريم لا يعجز اطلاقا أن تكون الكلمة دوما في مستوى المعنى المراد، على أدق وجه، وفي أكمل صورة، وهذا سر اعجازه، وآية من آيات بلاغته وروعته.

فلننظر.. كيف وصف القرآن المجيد، دعوة امرأة العزيز للنسوة اللائي تحدثن منتقدات عن مراودتها لفتاها (يوسف) عن نفسه، الى جلسة لطيفة رائقة في بيتها، لتطلعهن فيه على جمال يوسف، حتى يعذرنها فيما أقدمت عليه، لقد قدمت لهن في ذلك المجلس طعاما ولا شك، ولقد أوضح القرآن هذا، ولكنه لم يعبر عن ذلك بالطعام.. فهذا الأمر انما يصور شهوة الجوع، وينتقل بالفكر الى حيث يطهى ويعد الطعام — وهي صورة لا تتفق مع جلال الآية، ولا مع ما تريد أن تضعه أمام أذهاننا من مظهر المجلس الأنيق، فانظر الى الكلمة، التي عبر بها البيان القرآني عن الطعام، في هذا الجو، وهذه الحال.. (**فلمّا سمعت بمكرهن أرسلت اليهن وأعتدت لهن متكئا**)(١٦) (متكئا).. كلمة تصور لنا ذلك النوع من الطعام، الذي انما يقدم الى المجلس تفكها وتبسطا وتجميلا للمجلس، وتوفيرا لأسباب المتعة والراحة فيه، ولذلك فالشأن فيه أن يكون الاقبال عليه في حالة من الاسترخاء والاتكاء.. فأي تعبير هذا الذي تمتد به الدقة في تصوير المعنى الى هذا الحد غير تعبير القرآن؟.. وأي كلمة يمكن أن تحل محل هذه الكلمة.. في هذا الموضوع؟

وحين صوّر لنا القرآن المجيد، كيف أن رب القدرة قد أهلك (عادا) بريح عاتية داهمتهم، فأخذت تقتلعهم من الأرض اقتلاعا، وتطيرهم في الفضاء، شبّه أجسامهم الفارعة وهي تتطاير في سهولة سريعة بنخيل طوال، قد نخرت واقتلعت جذورها من باطن الأرض، فهي تتحرك لا يمسكها أي شيء.. فانظر كيف عبّر عن ذلك؟

(**انا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر، تنزع الناس كأنهم اعجاز نخل منقعر**)(١٧) (منقعر).. كلمة واحدة طوّعها وألانها التعبير القرآني لتصوير رائع، وجعلها تدل في اشراق جميل على ما لا يمكنك أن تعبر عنه بكلمة واحدة مهما حاولت، فهي تدل على أن النخيل قد انقلعت

جذورها من باطن الأرض، ولم تعد الا عمدا قائمة على سطحها، فكأن الكلمة منحوتة مصنوعة من كلمتي: (منقلع) و(قعر) صيغت منهما هذه الكلمة الرائعة المصورة العجيبة (منقعر) وهي —كما يقول الزمخشري: «من المجاز الذي يهتز له رأس البليغ طربا»(١٨).

وحينما حدثنا القرآن العزيز عن مظاهر عظمة الله ونعمه على عباده— ومن جملة هذه النعم (النار)نبهنا الى مختلف فوائدها واستعمالاتها في حياتنا، فأوضح أنها (متاع) يحتاج اليه في حالات السفر، واجتياز القفار، ولتحضير الطعام، ولما وراء ذلك من أسباب المتعة والرفاهية.. فكم من الكلمات التي وفّت بالتعبير عن هذه الفوائد كلها؟.. انها ليست أكثر من كلمة واحدة، اقرأ قول الحق تبارك وتعالى: (**أفرأيتم النار التي تورون. أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون. نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين**)(١٩). (المقوين) —هذه هي الكلمة التي تحمل تلك المعاني كلها، فالمقوين جمع مقو، أي نازل في القواء وهو المكان القفر، أو يجتاز بها، وعليه قول النابغة الذبياني:

يا دارَ ميّة بالعلياء فالسندِ أَقْوَتْ وطالَ عليها سالفُ الأمدِ

والمقوين أيضا من القوى وهو الجوع، والمقوين كذلك: جمع مقو بمعنى مستمتع، كما قال مجاهد في لسان العرب، واطلاق الاستمتاع في هذا المعنى الأخير، انما يفسره الزمن وتطور الأحوال وتقدم أسباب الحياة.

وهكذا لا يمكن لبشر أن يخضع اللغة لمقاصده، هذا الاخضاع العجيب، فيحشد كل هذه المعاني المتباعدة في كلمة واحدة تأتي طوع قصده ومراده، بدون تمحل أو تكلف او تقعر، ولكنها صنعة رب العالمين.

وقد يكون للكلمة القرآنية معنى قريب وآخر بعيد، أو معنى ظاهر وآخر باطن، أو معنى واضح وآخر خفي.. ومع ذلك فان هذه الكلمة دائما تحتفظ بدلالتها وروعتها، ولا يمكن أن يستعاض عنها بكلمة أخرى.. فلنقرأ قول الحق جل وعلا: (**كيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم الاً ولا ذمة**)(٢٠). ولنتأمل ذلك التصوير البديع الذي انطوت عليه كلمة (يظهروا) عليكم.

ان معناها القريب (يغلبونكم) ويظفرون بكم، ولكن مرادها البعيد اظهار الضعف وتصوير الاستسلام أمامهم، تماما كما يمتطي الانسان ظهر دابة من الدواب، ولا يملك من الأمر شيئا، أضف الى ذلك أن الصورة التي أبرزتها الكلمة، تثير النخوة والعزة، وتؤلب كرامة وارادة وعقيدة المسلم ضد هؤلاء، وتمسح بوادر التعاطف معهم من النفوس..

كذلك قول الحق سبحانه: (**يرضوكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون**) نجد أن كلمة (بأفواههم) تحمل بين ثنايا حروفها من المعاني والمضامين، كل عناصر الكذب والتضليل، اذ المعروف أن (الأفواه) هي مصدر الكلام الصادر عنها، وليس عن القلب والعقل كذب وهراء. ثم أنظر الى كلمة (تأبى) —أي تمتنع،وتأمل ما فيها من التشديد والاصرار على الكفر والمراوغة، ما تنقله لك من معاني متحركة سواء في حركاتها او سكناتها.

ولنقرأ أخيرا قوله تعالى: (.. **الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم**) ولنتأمل الصورة البديعة التي تتألق من اكتمال المعنى الذي ورد في كلمتي (ينقصوكم شيئا)— وهي أبلغ من القراءة الأخرى(ينقضوكم) لأن الانقاض تعني النقض أو الاخلال بجزء من الالتزام، وكلمة (شيئا) تحمل معنى التأكيد والتمييز للمعنى الأول.. وهذا كله انما يعني في مجمله: —أن الاتساق بين اللفظ والمعنى، والالتحام بين الكلمة ومضمونها، انما يصوّر عظمة الله سبحانه، ويؤكد الاعجاز في كلامه.

ولا يتسع المجال الآن لعرض المزيد من الشواهد والأمثلة، ولكن بامكاننا أن نتأمل فيما شئنا من كلام الله، لنقف على عظمة هذا البيان الالهي، الذي لا تصوره الآيات فقط، بل الكلمات أيضا. لذلك نقول: ان من أعظم آيات اعجاز القرآن الكريم— انه يجري على نسق خاص في أسلوبه، يجري على نسق بديع، خارج عن المعروف والمألوف من نظام جميع كلام العرب، وتعبيراته البلاغية تجري على مستوى رفيع واحد من السمو المتناهي في جمال اللفظ، ودقة الصياغة، وروعة التعبير، أما ألفاظه— فهي مصوغة بشكل غريب، وعلى هيئة عجيبة، بحيث تصلح أن تكون خطابا للناس كلهم، على اختلاف عقولهم وتفكيرهم وثقافاتهم، أي أنها تقدم لكل قاريء من معناها ما يقدر على فهمه واستيعابه، ومن هنا كانت الكلمة القرآنية آية من آيات الاعجاز القرآني، تنطق بقدرة القادر، وتشهد بعظمته وسرّ ابداعه لآيات كتابه المجيد □

---

(١) المنافقون/٤
(٢) البقرة /٢٠٤
(٣) الأحزاب /١٩
(٤) الزخرف/٥٨
(٥) هود/١٣
(٦) البقرة/٢٣
(٧) الاسراء/٨٨
(٨) البيان والتبيين ٣٧٣/١
(٩) أنظر رسالته (بيان اعجاز القرآن) ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن، تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام وزميله، طبع دار المعارف بمصر.
(١٠) انظر رسالته (النكت في اعجاز القرآن) المرجع السابق.
(١١) كتاب اعجاز القرآن ص٨
(١٢) انظر رسالته (الشافية في اعجاز القرآن) ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن.
(١٣) الأنعام / ٩٦
(١٤) التكوير /١٧—١٨
(١٥) النازعات /٢٧—٢٩
(١٦) يوسف/٣١
(١٧) القمر/١٩— ٢٠
(١٨) أساس البلاغة ص٥١٦
(١٩) الواقعة /٧٢—٧٣
(٢٠) التوبة/٨
(٢١) التوبة/٤

دراسات في علم المصطلح العربي (١)

بقلم: د. عبدالصبور شاهين / جامعة البترول والمعادن

معنى المصطلح

لا بد في بداية هذه الدراسة من تحديد معنى «المصطلح»، وغاية ما يمكن أن يقال: أنه من حيث الصيغة اسم مفعول من «اصطلح اصطلاحا» على تقدير متعلق محذوف مثل «عليه»، وقد يكون مصدرا ميميا مرادا به معنى المصدر الصريح، وأما من حيث المعنى فقد ذكر احمد فارس الشدياق: أن المصطلح هو «اتفاق طائفة مخصوصة على أمر مخصوص»(١)، كما جاء في المعجم الوسيط: «اصطلحوا على الأمر: تعارفوا عليه واتفقوا»، والاصطلاح — مصدرا — هو «اتفاق طائفة على شيء مخصوص، ولكل علم اصطلاحاته»(٢)، وهذه العبارة منقولة بنصها عن المعاجم القديمة، التي اقتصرت عليها.

والنقطة الجوهرية في هذه التعاريف هي الاتفاق بين طائفة معينة على أمر معين، فاذا كان هذا الأمر هو معنى لفظ ما، فان موضوع الاتفاق هو تخصيص دلالة هذا اللفظ بهذا المعنى، ولكل علم اصطلاحاته على هذا الاعتبار.

غير أنه مما يرد اعتراضا على هذا التحديد — في رأينا — أن القرآن الكريم قد جاء بكثير من الألفاظ التي يمكن أن تعد من قبيل الاصطلاحات، كالصلاة، ومعناها اللغوي الدعاء، واصطلاحا: أقوال وهيئات مخصوصة من قيام وقراءة وركوع وسجود وقعود، وكذلك الصوم، الذي يعني — لغة — مطلق الامساك، واصطلاحا: الامتناع عن شهوتي البطن والفرج ما بين طلوع الفجر الى غروب الشمس، وكذلك الزكاة، التي هي — لغة — التطهير والنماء، واصطلاحا: مقدار معين من المال يخرج لمصارفه مما زاد على النصاب اذا حال عليه الحول، الى غير ذلك من الألفاظ القرآنية التي هي قطعا من الاصطلاحات، ولا يمكن القول بأن معناها الاصطلاحي ناشىء عن اتفاق طائفة معينة بشأنه. فقد أنزلها الله سبحانه بمعناها الخاص من فوق سبع سماوات، وهكذا يبين لنا وجه من القصور في التعريف السابق.

ان هذا الاعتراض يفرض علينا اعادة النظر في تحديد معنى «الاصطلاح»، بعيدا عن تحليل المعنى اللغوي للصيغة المصدرية، ولا بأس في أن نراجع تعريف المعجم الانجليزي في هذا الصدد، وقد عرّف «وبستر» كلمة « Term » بأنها: «لفظ او تعبير ذو معنى محدد في بعض الاستعمالات، أو معنى خاص بعلم، أو فن، أو مهنة، أو موضوع». وجاء تعريفه لكلمة « Terminology » أنها: «مجموعة الألفاظ الفنية أو الخاصة المستعملة في عمل، أو فن، أو علم أو موضوعات خاصة»(٣).

ومن الممكن في ضوء هذين التعريفين للمصطلح، ولمجموعة المصطلحات أن نضع تعريفا شاملا لهذا «المصطلح»، فهو في نظرنا «اللفظ أو الرمز اللغوي الذي يستخدم للدلالة على مفهوم علمي أو عملي أو فني أو أي موضوع ذي طبيعة خاصة». وهذا التعريف يضع في حسابه أن المصطلح قد يكون لفظا، وقد يكون رمزا لغويا، فعبارة «رأس مال» مصطلح مركب ذو دلالة اقتصادية، وكلمة «تحليل» مصطلح ذو دلالة علمية عامة، يحددها ما يضاف اليه من مادة للتحليل، والرمز «كت» مصطلح يدل على العنصر المسمى «اكتنيوم». وقد اصطلح أهل العلم على هذا الاختصار الذي تقره الأساليب اللغوية.

مصطلح واصطلاح

وقد لاحظنا أن المعاجم والكتب الفنية القديمة قد تجنبت استخدام صيغة «مصطلح»، وآثرت تعريف «الاصطلاح». فالخوارزمي (المتوفى ٣٨٠هـ) في كتابه «مفاتيح العلوم» يذكر ص٢ و ص٣ أنه ألف كتابه «جامعا لمفاتيح العلوم، وأوائل الصناعات. مضمنا ما بين كل طبقة من العلماء من المواضعات والاصطلاحات»، فقد ورد في هذا النص كلمات تبدو مترادفة أو شبه مترادفة هي «مفاتيح — أوائل — مواضعات — اصطلاحات». والتهانوي من مؤلفي القرن الثاني عشر الهجري، جعل عنوان كتابه الكبير «كشاف اصطلاحات الفنون». وهو في مقدمة كتابه يقول بأن سبب الحاجة الى الأساتذة في دراسة العلوم والفنون هو «اشتباه الاصطلاحات، فان لكل اصطلاحا خاصا به». ولكنه يعود بعد سطور من هذا الموضع ليقرر أنه توجه الى ذخائر الحكمة الفلسفية، والرياضية كالحساب والهندسة وغيرهما «فاقتبست منها المصطلحات أوان المطالعة» وهو بذلك يدل على أنه لا يستشعر فرقا بين الاستعمالين، وان كان الاستشهاد بغير عربي في هذه القضية لا يعد حجة. وجاء الشدياق،

ومن بعده مجمع اللغة العربية بالقاهرة يتحدث كلاهما عن «الاصطلاح» لتعريفه، ولم يتناول كلمة «المصطلح». فهل يكون هذا ابعادا للكلمة الأخيرة من مجال الاستعمال استغناء بالكلمة الأولى؟

ان لهذه المسألة تفصيلا نتصوره هنا من وجهة نظرنا، لأن أحدا لم يطرح أي سؤال عن السبب في أن معاجم اللغة قد تجنبت تعريف كلمة «مصطلح»، مع أن مفهوم كل منهما يختلف عن مفهوم الأخرى في لغتنا المعاصرة، فنحن نتذوق في استعمالنا لكلمة «اصطلاح» معناها المصدري، الذي يعني الاتفاق والمواضعة والتعارف، ونقصد في استعمالنا لكلمة «مصطلح» معناها الأسمى الذي يترجم كلمة « Term » الانجليزية، ولذلك لا نجد بأسا في أن نقول: «ان اصطلاحنا على مصطلح ما ضرورة في البحث»، وهو أولى وأفضل من أن نقول: «ان اصطلاحنا على اصطلاح» بهذا التكرار الركيك. ويبدو أن هذه التفرقة في الاستعمال لم تكن واضحة قديما، حتى وجدنا مؤلفا لغويا، هو «ابن فارس» يستخدم كلمة «مصطلح» في سياق يفيد أن بعض أوصاف السيف توقيف، قال: «حتى لا يكون شيء منه مصطلحا عليه»، ثم قال: «ولو كانت اللغة مواضعة واصطلاحا لم يكن أولئك في الاحتجاج بهم بأولى منا في الاحتجاج بنا لو اصطلحنا على لغة اليوم».

ثم قال: «انه لم يبلغنا أن قوما من العرب في زمان يقارب زماننا أجمعوا على تسمية شيء من الأشياء مصطلحين عليه، فكنا نستدل بذلك على اصطلاح قد كان قبلهم، وقد كان في الصحابة من النظر في العلوم الشريفة ما لا خفاء به، وما علمناهم اصطلحوا على اختراع لغة، أو احداث لفظة لم تتقدمهم» فقد استعمل «ابن فارس» من مشتقات المادة الفعل الماضي، والمصدر، واسم الفاعل واسم المفعول، دون فرق في الاستعمال، فكلها صور اشتقاقية استخدمت في معانيها الاشتقاقية، دون أن يقصد الى التعبير عن مثل ما يستفاد من كلمة « Term ».

ولئن سجلنا ذلك عن القدماء في كتبهم ومعاجمهم وارتضيناه حتى في «معجم العروس» للسيد مرتضى الزبيدي الذي ألفه في نهاية القرن الثاني عشر الهجري، وهو ناقل عن السابقين— فان من الغريب ألا يتعرض المجمع اللغوي في معجمه «الوسيط» لمعالجة هذا «المصطلح» من الزاوية الجديدة.

أيمكن أن يكون هذا المسلك من المجمع ابعادا للكلمة من مجال الاعتماد المعجمي، لأنها غير أصيلة في الثقافة العربية، ولا تؤدي معنى زائدا عن المعنى المصدري؟.

الواقع أن هذا الاحتمال قد راودنا في فترة كتابة هذا البحث، لولا أن تذكرنا أن للمجمع اللغوي نشرة كبيرة بعنوان «مجموعة المصطلحات العلمية والفنية»!! ثم تذكرنا أيضا أن كلمة «مصطلح» ذات وجود أصيل في الثقافة الاسلامية، فعلم «المصطلح» أو «مصطلح الحديث» من العلوم الراسخة في عقولنا وثقافتنا، غير أن «المصطلح» في هذا المجال لا يعني أكثر مما يعنيه «الاصطلاح»، وهو الاتفاق على ضوابط معينة لنقد الحديث النبوي، قبولا أو ردا وعليه يبقى الاستعمال الجديد لمصطلح «مصطلح» في معنى « Term » ملحا علينا في اعتماده، ومشيرا الى نقص في «المعجم الوسيط» ينبغي بعد هذا أن يتلافى في أية طبعة قادمة، بمعنى «اللفظ أو الرمز اللغوي الذي يستخدم للدلالة على مفهوم علمي أو عملي أو فني، أو أي موضوع ذي طبيعة خاصة»، وبذلك نكون قد أضفنا سطرين الى رصيد العربية المعاصرة.

تصنيف المصطلح العلمي

اذا كنا نقصد بالمصطلح العلمي كل ما استعمل للدلالة على معنى خاص بالعلوم الانسانية أو الطبيعية، فان العلوم الدينية داخلة في هذا التحديد لاشتمالها على كثير من المصطلحات التي جاء بها القرآن، أو قررتها السنة، أو وضعها المجتهدون من الأئمة والفقهاء، كالشفعة، والتدبير، والايلاء، والظهار، واللعان، والفرائض... الخ.

ومن خواص «المصطلح» انه ذو معنى محدد، لا يدخل فيه الخيال الا بقدر ما يحقق انتقال اللفظ من المعنى الأصلي الى المعنى الاصطلاحي، في حالة المصطلح المنقول، وقد كان القدماء يستعملون اللفظ الواحد في أداء عدة معان اصطلاحية تختلف باختلاف العلوم، بل باختلاف أبواب العلم الواحد، ولنأخذ مثلا كلمة «الوتد»: «فانها عند اللغويين والمفسرين أحد أوتاد البيت أو الجبل، من قوله تعالى: «والجبال أوتادا»، وعند أصحاب العروض: ثلاثة أحرف اثنان متحركان وثالث ساكن، وعند المنجمين: أحد الأوتاد الأربعة التي هي: الطالع والغارب، ووسط السماء، ووتد الأرض»(٤)— فهذا مثال على تعدد معنى المصطلح باختلاف العلوم، وأما تعدد معناه باختلاف أبواب العلم الواحد فمثل مصطلح «المفرد» فهو في «باب الاعراب»: ما ليس مثنى ولا مجموعا ولا ملحقا بهما ولا من الأسماء الخمسة، وهو في باب «المبتدأ والخبر»: ما ليس جملة ولا شبيها بالجملة، وهو في باب «المنادى»: ما ليس مضافا ولا شبيها بالمضاف. ولسوف نرى خلال هذه الدراسة أن هذا التعدد غير مقبول في نظام المصطلح الحديث.

ومن الممكن تصنيف المصطلح العلمي باعتبارين: اعتبار الشكل، واعتبار المعنى أو المدلول، ولكل من هذين الاعتبارين تقسيمات فرعية.

أولاً: المصطلح باعتبار الشكل

وأول ما يصادفنا في هذا التصنيف أن المصطلح قد يكون عربيا وقد يكون غير عربي. ولا شأن لنا الآن بغير العربي، لأننا نتلقاه محدد المعنى والصيغة، فيما عدا ما يتعرض له من تغيير في حالة التعريب.

فأما المصطلح العربي، فينقسم إلى أربعة أقسام

- مصطلح مشتق مثل: التقطير، والتشميع، والتحليل، والتصدئة.
- مصطلح جامد مثل: الحجر،

والكبريت، والزرنيخ، والزئبق، والذهب، والفضة، والضفدع، والخنزيرة.

* مصطلح رمزي، وهو ما يستعمل على سبيل الاختصار للمصطلح الأصلي، مثل: «كت» رمزا للاكتنيوم، و«لو» رمزا للألمنيوم، و«نت» للأنتيمون.

* وأخيرا مصطلح مركب من بعض هذه الأقسام.

ويبدو لنا أن هذا التصنيف للمصطلح العربي — بقسميه الأولين — داخل في تصور النحاة قديما للعلم، حين قسموه الى: منقول ومرتجل، وقالوا: ان المنقول هو ما استُعمل قبل العَلَمية لغيرها، ونقلهُ اما من اسم حدث كزيد وفضل، أو من اسم عين كأسد وثور، أو من وصف لفاعل كحادث وحسن، أو وصف لمفعول كمنصور ومحمد، واما من فعل ماض كشمّر، أو مضارع كيشكر.. الخ. وقالوا: ان المرتجل هو ما استعمل من أول الأمر علما، كأُدَد — لرجل، وسعاد— لامرأة(٥).

فهذان القسمان للعلم شبيهان بالقسمين «المشتق والجامد» في تصنيف المصطلح العربي.

ولما كان المصطلح العلمي لفظا يعين مدلوله على وجه التحديد من ناحية، ومع وجود قدر من العموم والانتشار — من ناحية أخرى— فان من الممكن أن نضع المصطلح العلمي في باب «أعلام الأجناس»، ذلك أن «العلم الجنسي»: اسم يعين مسماه بغير قيد، ومن أقسامه: علم الجنس للأمور المعنوية(٦). ونحن نميل الى اعتبار المصطلح العلمي من هذا الباب، ذلك أن مصطلحا مثل «التحليل» انما يصدق على مجموعة من العمليات العلمية التي لا تختلط بغيرها من عمليات «التركيب»، فهو شائع في كل العمليات المماثلة، كما أن لفظة «الأسد» شائعة في الدلالة على كل ما هو من جنسه، وهكذا في كل الأمثلة المشابهة.

ثانياً: تصنيف المصطلح باعتبار المعنى

وهنا يضيق التصنيف قليلا ليشمل نوعين:

* مصطلحا يستعمل بمعناه الأصلي في اللغة.

* مصطلحا خرج عن معناه الأصلي الى معنى اصطلاحي.

فكلمات مثل: ذهب، فضة، نحاس، رصاص، تستخدم في مجال الكيمياء، وعلوم الأرض بنفس المعنى الذي وضعت له في اللغة، ولكن هناك ألفاظا خرجت عن معانيها الأصلية لتدل على معان اصطلاحية في فنون مستحدثة، وذلك مثل: «الضفدع» بمعنى: «غدة تنعقد تحت اللسان»(٧)، و(الرحا) بمعنى: «علة تحدث للمرأة تشبه حالها حال الحبلى في عظم البطن، وفساد اللون، واحتباس الطمث»(٨). و«الخنزيرة» من آلات الميكانيكا: «وهي شيء شبيه بالبكرة الا أنه طُولانيُّ الشكل»(٩). هذا معنى، وهناك معنى آخر جاء للكلمة مجموعة، فقد جاء في القاموس المحيط: الخنازير: قروح تحدث في الرقبة. ولا شك أن تطورا كبيرا قد طرأ على بعض هذه المصطلحات مما لا يزال مستعملا حتى الآن، ومن ذلك لفظة «الخنزيرة» التي تطلق على نوع من السيارات، كما تطلق على الآلة التي تسحب بها السيارات المعطلة.

ولقد يدخل في باب خروج اللفظ عن معناه الأصلي الى معنى اصطلاحي ما ذكره الخوارزمي في «مفاتيح العلوم» من أن لأرباب صناعة الجواهر والعقاقير والأدوية مصطلحات خاصة بهم، أشبه باللغة السرية، قال: «ويكنى أرباب هذه الصناعة في الرموز عن الذهب بالشمس، وعن الفضة بالقمر، وعن النحاس بالزهرة، وعن الاسرب بزحل، وعن الحديد بالمريخ، وعن الرصاص القلعي بالمشتري، وعن الخارصيني بعطارد»، ثم قال: «وقد يقع بينهم اختلاف في هذه الرموز أو في أكثرها، لكنهم لا يكادون يختلفون في الشمس والقمر»(١٠). وهكذا نجد أن أسماء هذه الكواكب قد خرجت عن معانيها الأصلية لتدل على مجموعة المعادن التي يعالجها الأخصائيون في معاملهم.

لكن علينا أن نتساءل عن السبب الذي يحدو بعض الناس الى مثل هذا المسلك اللغوي؟ ثم نتساءل عن العلاقة التي تربط المعنى الاصطلاحي المحدث بالمعنى الأصلي؟..

وللاجابة عن السؤال الأول نقرر ان بعض طوائف المجتمع يتجه الى مثل هذا المسلك بتحويل دلالة اللفظ، أو مسخها وتشويهها أحيانا، اما رغبة في الاحتفاظ بسر المهنة، واما خوفا من سلطة المجتمع، وأيا ما كان السبب فان استعمال اللفظ في هذه الدلالة الخاصة يحدث في نفس المتكلم احساسا بالمتعة اللغوية، أليس يتحدث بلغة لا يفهمها معه الا قلائل؟ أليس هذا امتيازا على كل أفراد المجتمع، ولو على أساس التوهم؟!

ثم ان من المعروف أن ألفاظ اللغة محدودة، في مقابل أن المعاني غير محدودة، فلابد اذن من اللجوء الى استخدام الألفاظ مرات عديدة ليتمكن صاحب اللغة من استعمالها باقتدار وطواعية للتعبير عن كل ما يصادفه من المعاني، وذلك كأن يعامل اللفظ باعتبارين، أحدهما على أنه مصدر، والآخر على أنه اسم، فكلمة «مصطلح» تعامل — كما سبق — باعتبارها مصدرا بمعنى الاصطلاح، وتعامل باعتبارها اسما في مقابل « Term »، وكلمة «العقل» تعامل باعتبارها مصدرا بمعنى تحمل الدية، وتعامل باعتبارها اسما بمعنى ملكة الفهم والادراك.

فهما اذن سببان من وراء التحول في دلالة اللفظ، سبب يرجع الى ظروف المجتمع، وسبب يرجع الى اللغة ذاتها □

المراجع:

١ — الجاسوس على القاموس — ص/٤٣٧.

٢ — مادة صلح.

٣ — Webster's new collegiate dictionary

٤ — مفاتيح العلوم للخوارزمي/٤

٥ — أنظر أوضح المسالك ١/١٢٣.

٦ — السابق ١/١٣٣.

٧ — مفاتيح العلوم/١٦١.

٨ — السابق /١٦٤

٩ — السابق/٢٤٩ — وهذه المعاني كانت لهذه الألفاظ في القرن الرابع الهجري.

١٠ — السابق/٢٥٨.



نقوش الكهوف في عصور ما قبل التاريخ

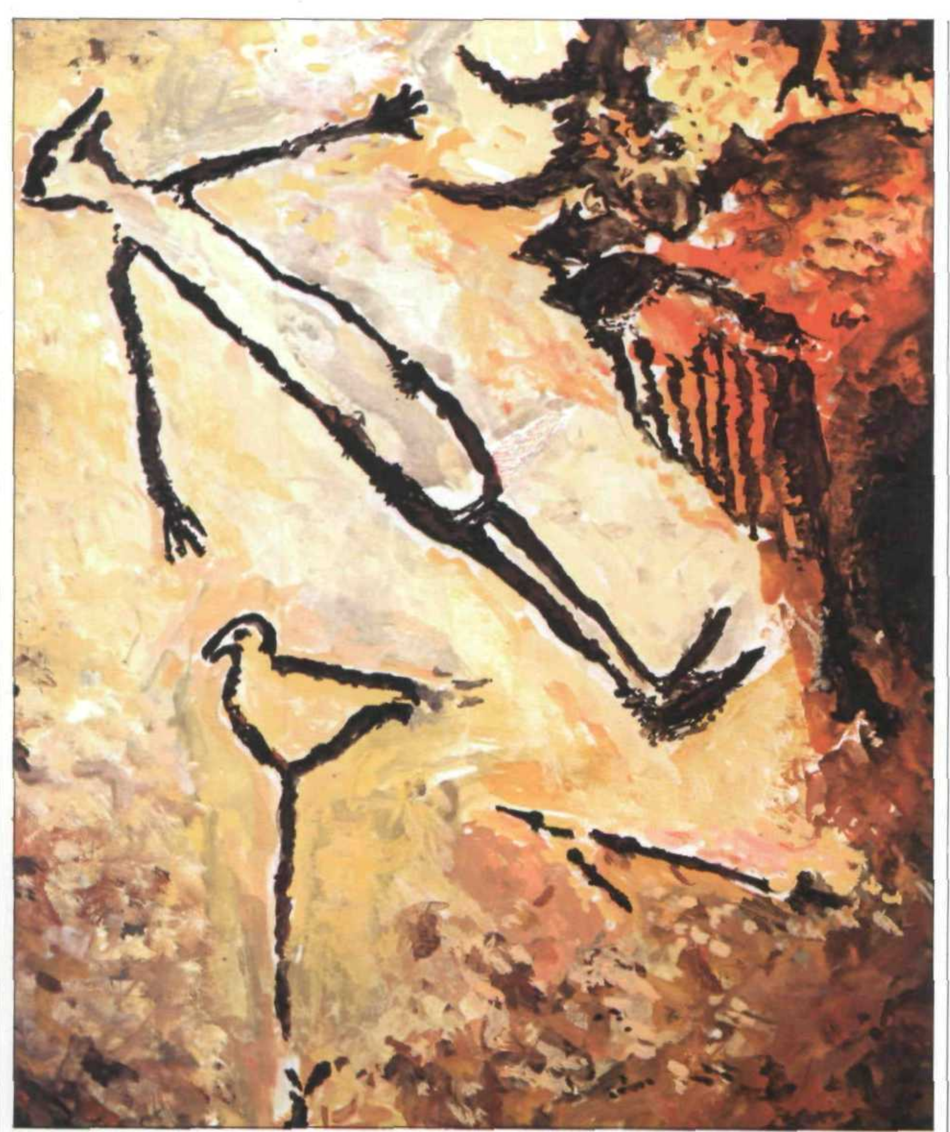
أولى متاحف العالم

بقلم السيدة: آمال حسين بغدادي/القاهرة

صرخت الصبية الصغيرة، قصيرة القامة، «ماريا»، ذات الاثنى عشر ربيعا: — تورس.. تورس.. !

أي ثور.. ثور، وسمع والدها صوتها، فأسرع نحوها، ظانا أنها قد تعرضت لمكروه ما، لكنه وقف مندهشا متعجبا، وهو يتتبع على ضوء شمعتها، ما تشير اليه، فلقد وجد نفسه أمام رسوم لثيران برية، منقوشة على الجدران، كان والد الصبية الصغيرة «ماريا»، هو النبيل الأسباني «دون مار سيلينو دى ساوتولا»، عاشق الآثار والحفريات، والذي دفعته هوايته لها، والمامه ببعض علومها، الى أن يبحث وينقب عن أدوات قدّت من العظام أو الحجارة، مثل تلك التي شاهدها في أحد المعارض، عندما كان في زيارة باريس، وأخذ يتأمل في انبهار نقوش كهف «التاميرا»، ورسومه التي لا حصر لها، وكان تاريخ هذا الاكتشاف الذي جاء بالصدفة عام ١٨٧٩، وأطلق على نقوش «التاميرا» فيما بعد «قاعة الصور».

بيد أن علماء الآثار والجيولوجيا مع نقاد الفن، لم يصدقوا هذا الاكتشاف، وارجعوه اما الى أنه عمل يدخل تحت باب تزييف اللوحات والأعمال الفنية، أو الى أنه من رسم فنان مجهول في عصر قريب، مستبعدين تماما امكانية أن تكون هذه الرسوم والنقوش من مخلفات عصور ما قبل التاريخ.



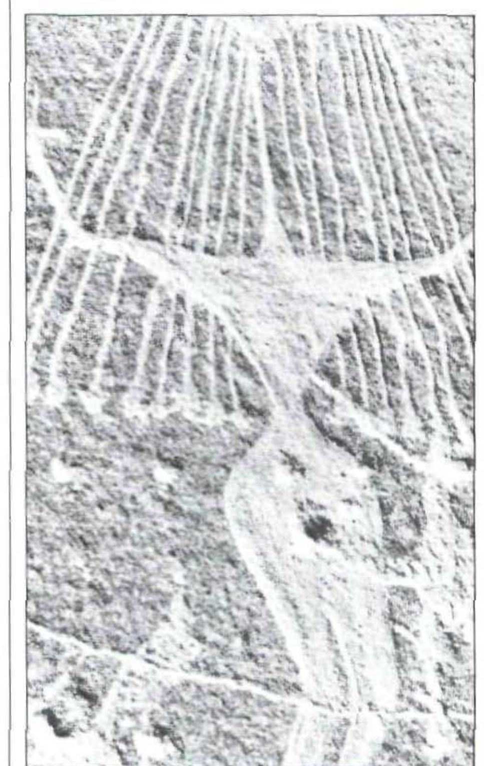
الصياد وثور البيسون من مغارة «لاسكو».



لوحة تمثل ذكر البيزون في وضع متوثب، عثر عليها في كهف «ألتاميرا».

ومنذ عام ١٨٩٠ تتابع اكتشاف كهوف شبيهة بكهف «التاميرا» في أسبانيا وفرنسا وأنحاء كثيرة من أوروبا، لكن أكثر الكشوف اثارة بعد «التاميرا»، كان الكشف الذي وقع عام ١٩٤٠ في ناحية «لاسكو» بمقاطعة «دور دون» في فرنسا. فبينما كان أربعة من الصبية يبحثون عن كلب أحدهم عند مدخل أحد الكهوف، قادتهم خطاهم الى قاعة منقوشة بنقوش جميلة حافلة بصور الثيران، ولهذا سميت «قاعة الثيران».

وكان لا بد للعلم أن يقول كلمته، مستخدما وسائله وأدواته، ازاء امتداد اكتشافات الكهوف المصورة ليس في أوروبا



نحت غائر يمثل بعض المواقف المسرحية (بيرحما — نجران).

فحسب بل في آسيا وافريقيا، يقول الاستاذ «جوزيف كي. زربو»(١) عن النقوش الصخرية في أفريقية: «هذا الفن يكوّن فيلما تسجيليا للبيئة الطبيعية لأول مجتمعات عاشت في أفريقية. فقد وجد «لوت» عظام فرس النهر في موقع أثري عند «أدار بوص» يرجع عمرها، باستخدام طريقة الكربون المشع، الى ٣١٠٠٠ سنة ق.م. وهي تؤكد دقة المعلومات التاريخية التي استقيناها من مجموعة أفراس النهر التي نم عليها في «أسادين وان ميلين» وهذا الحيوان مؤشر بَيْئِيّ، اذ أنه يدل على وجود مورد مائي منتظم طوال العام في هذا المكان يمكنه من الحياة فيه في ذلك الحين».

أما البروفسور «فرنسوا بوردي»، العالم الفرنسي المعاصر، وأستاذ مادة ما قبل التاريخ، وأحد الثقات في أدوات العصر الحجري القديم، فيؤكد في دراسته «حياة انسان العصر الحجري» (٢) على الحقائق التالية:

أولا: على الرغم من القسوة والبؤس لحياة انسان العصر الحجري الا أنه عند وفرة حيوانات الصيد كان لدى الانسان فراغ لأعمال النحت والرسم.

ثانيا: أثبتت الاكتشافات الحديثة أن النقوش والرسوم التي كان يبدعها انسان عصور ما قبل التاريخ لم تكن تزين الكهوف فحسب بل كانت تزين المساكن الحجرية.

ثالثا: أنه في العصر الحجري المتقدم صارت طقوس الجنائز أكثر تعقدا، فكان الموتى يدفنون ومعهم أشياء قيمة، مكونة من أدوات من الصوان والعظام، وعقود جميلة مكونة من المحار المثقوب.

كما استطاع العلم أن يتعرف على تاريخ الكهوف المصورة في أوروبا، وأرجع تاريخها الى ثلاثين ألف عام، قام برسمها رجال ينتمون الى قبائل «الكرومانون».

ومن أهم المواقع التي اكتشفت في أوروبا لنقوش الكهوف، ما وجد في: ليفانزو، باليرمو، ليسي، فالكامونيكا في ايطاليا، والتاميرا، وأوفيدو، بلباو، بيرجوس، كاريز، ملقا في أسبانيا. أما في فرنسا، فتوجد في تولوز، بوردو، لاسكو، بيرجو، مونتبلييه.

ومن الدلائل التي تدحض الزعم القائل بأن سواحل الجزيرة العربية فقط هي التي تحفظ آثارا حضارية هامة ما ساقه سعادة الدكتور عبدالله مصري، وكيل وزارة المعارف المساعد للشئون الثقافية، مدير المتاحف والآثار والتراث الشعبي، اذ يقول:(٣)



رأس ثور ضخم طوله ٤ أمتار في كهف لاسكو.

«انه حتى في العصور الحجرية القديمة برزت هناك مواطن للحضارة المستقرة في وسط الجزيرة، ولعلنا لا نبالغ في القول اذا أوردنا مثال فنون النقش المعروفة بطراز «جيّة» كدليل على ذلك. وطراز «جية» هذا له امتداد تاريخي يرجع الى أكثر من ثمانية آلاف سنة وتمتد آثاره من المنطقة الجبلية شرقي نجران في الجنوب الى سلسلة التلال الجبلية المحاذية للنفود الكبير غربي حائل في الشمال. فلقد عاشت عبر هذه المناطق في قلب الجزيرة العربية أقوام لهم صفة الاستقرار في المعيشة منذ ما يزيد على ثمانية آلاف عام، كما ذكرنا، وأبرزت هذه الأقوام في تخليد ذكراها في اتقان فن النقش والنحت الصخري الدقيق».

---

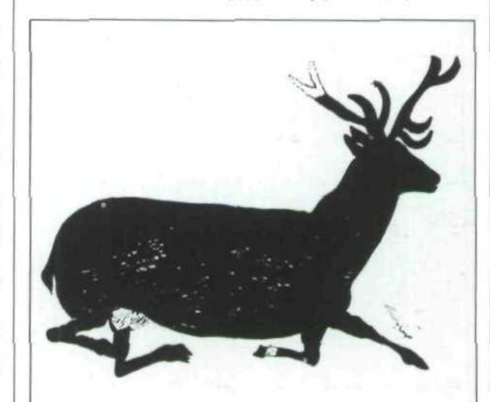
١ — مجلة رسالة اليونسكو — العدد ٢١٩، ٢٢ — أكتوبر — نوفمبر سنة ١٩٧٩ — الطبعة العربية — مقال: فنانو العصر الحجري الحديث بقلم الأستاذ جوزيف كي. زربو صفحة رقم ٣٠.

٢ — مجلة رسالة اليونسكو — أكتوبر ١٩٧٢ — الطبعة العربية — دراسة البروفيسير: فرانسوا بوردي — صفحة ٢١ — حياة انسان العصر الحجري.

٣ — المجلة العربية (السعودية) — عدد رجب ١٤٠١هـ — مايو ١٩٨١ — لقاء مع الدكتور عبدالله مصري — صفحة ٤٨.

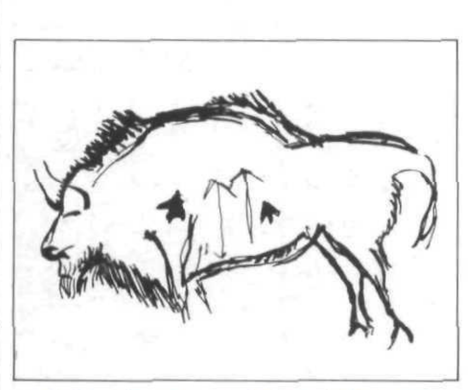
رسم تمثل «البيزون» مأخوذة من كهف «نيو» في فرنسا.

أما الكهوف المصورة والمنقوشة في القارة الأفريقية، فتوجد في «تاسيلي تاجر» في الجزائر، وفي جنوبي المغرب، وفي فزان في ليبيا، وفي «ايرو تنيريه» بالنيجر، وفي «يتبستي» في تشاد، وفي بلاد النوبة، وفي مرتفعات أثيوبيا، وفي «ضهار تشيت» في موريتانيا، وفي «موزا ميدا» بأنجولا. كما توجد أمثال هذه الكهوف في ليسوتو، بوتسوانا، مالاوي، ناميبيا، وجمهورية جنوب أفريقية.



رسم لوعل يعدو عثر عليه في كهف «التاميرا» في أسبانيا.

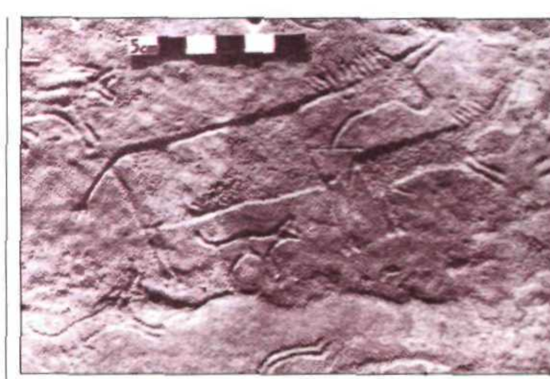
وبالنظر الى أن تاريخ الفنون المنقوشة على الصخر في أفريقية يعود أساسا الى العصر الحجري الحديث— رغم أن بعض العلماء يرجعها الى العصر الحجري المتوسط، فان نقوش وصور الحيوانات كانت تمثل التياتل وهي نوع من الجاموس الضخم، وفرس النهر، والثور الايبيري، والثور الأطلنطي، ثم الحصان. أما الجمل فيأتي في المؤخرة. وهناك الوعول والغزلان والأغنام والماعز، ومن الحيوانات المفترسة، النمر والشيتا، فضلا عن القردة والنسانيس والنعام والبوم والكلاب، كما يكثر فيها رسوم ونقوش تعبر عن صيد مثل هذه الحيوانات، والصراع بين الوحش والانسان. ومنها مشاهد تصور جمع الفتيات الصغيرات للثمار والنباتات، وبعض آخر تظهر فيها الأكواخ المستديرة والأثاث والمناظر الأسرية، وتجمع النساء ذوات الثياب الضخمة. أما نقوش الكهوف في غرب أوروبا فقد كانت تعبر في أغلب الأحيان عن مشاهد للثيران والخيول البرية، وصيدها.



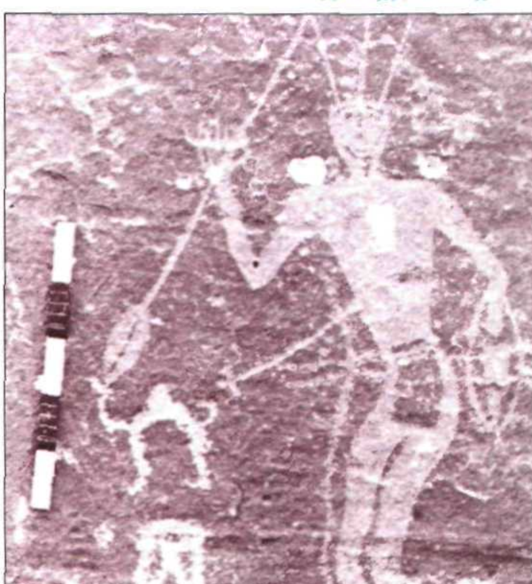
الحصان الملون من كهف نيو (جنوب غربي فرنسا)

لكن ما هي الألوان والخامات التي كان يستخدمها فنانو ما قبل التاريخ؟.. وكيف كانوا يعالجون هذه الخامات والألوان؟

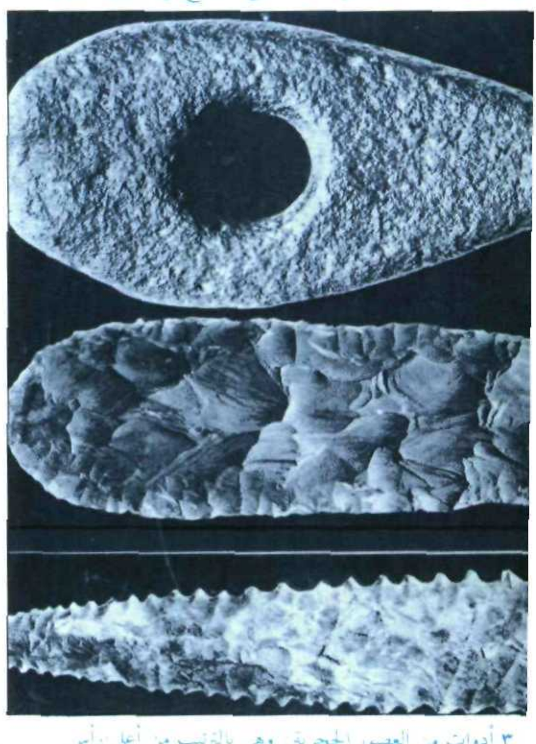
—كانت الألوان المفضلة عند فنان العصور الحجرية، الأحمر والبني، وكان يستخرجها من أكاسيد الحديد. أما اللون الأسود فاستخرجه من الفحم النباتي، والعظام المحروقة، أو الدخان والدهن المحروق، كما وجدت ألوان كالأبيض، والأصفر، والأخضر، والبنفسجي، وكانت حبيبات



نقوش بديعة على واجهة إحدى الصخور تمثل مجموعة من الحيوانات «الجزيرة العربية».

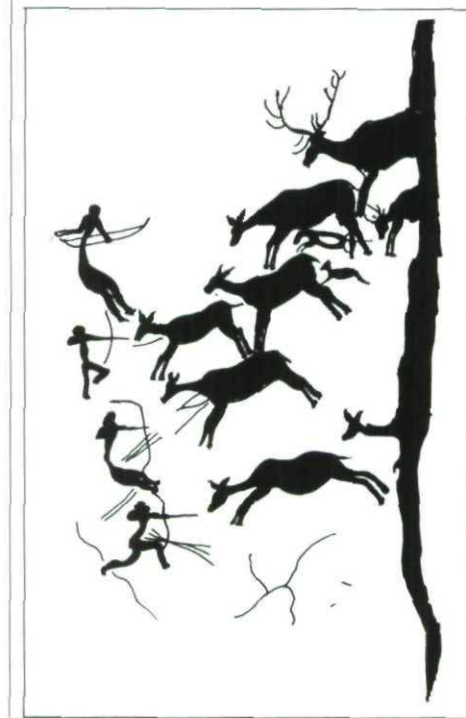


صورة تبين حياة الصيد لإنسان ما قبل التاريخ في الجزيرة العربية.



٣ أدوات من العصور الحجرية، وهي بالترتيب من أعلى: رأس فأس — رأس رمح — نصل مسنن الحد.

الصخور، والمعادن تطحن في أهوان صغيرة، وتخلط، ثم يضاف اليها سائل نباتي أو أي مادة لزجة ماسكة، وكانت «الباليتة» أو «لوحة الألوان» التي يمزج عليها فنان العصر الحجري ألوانه هي كف يده، ولكنه في أحيان كثيرة كان يستعمل عظمة ذات تجويف يملؤها بالسائل، وينفخه بفمه.



واليوم ينظر نقاد الفنون التشكيلية باعجاب وتقدير كبيرين لنقوش ونحت ورسوم كهوف ما قبل التاريخ، وقد كان فنانوه يهدفون الى أن تكون أعمالهم وصورهم واضحة وواقعية على قدر الامكان، وكان أسلوب فنان الكهف يقوم على رسم الخطوط الخارجية للأشياء، ثم يدور الفنان بفرشاة اللون من حولها، ومن نقطة البداية هذه، كان يرسم في بطء شديد، وربما سار الحال على هذا المنوال مئات من السنين، حتى اكتسب المهارة الفنية في ابراز رسومه وأشكاله.

وفي الحالات التي رسم فيها فنان الكهف الأشخاص، فانه كان لا يرسمهم بالأسلوب الواقعي الذي تعود عليه في رسمه للحيوانات، وهذا مشاهد في كهف «لاسكو» حيث يوجد نقش يصور ثورا جريحا يطاحن رجلا، كما كان فنان الكهف لا يرى غضاضة في أن يرسم فوق رسوم مسبقة، ما دامت مساحة الجدار محدودة. ويتضح هذا في صورة الخيول المرسومة فوق الثور في كهف «لاسكو».

غير أن السؤال الذي يلح على الذهن هو: لماذا قام فنان الكهف بنقش ورسم ونحت الحيوانات على جدران الكهف؟

ويجيب على هذا السؤال البروفيسير «فرانسوا بوردي» (٤) بقوله:

«أما بالنسبة للسحر والدين، فقد اتخذت تفسيرات متنوعة لفن ما قبل التاريخ. فعندما اكتشفت أعمال هذا الفن أول الأمر قيل أن هذه الأعمال تعكس مظهرا من مظاهر حاسة جمالية متطورة تطورا كبيرا، ومن هذا استنتج ان فن ما قبل التاريخ كان هدفه اطلاق تعويذة اما لانجاح الصيد أو لزيادة عدد الحيوانات».

وليس من الصعب أن تتخيل أن الانسان في تلك العصور كان يحيا على ما يجمعه ويلتقطه من ثمار ونباتات وزروع وعلى ما يصطاده من فرائس، وكان اقتناص عدد من الحيوانات يعني وجبات دسمة لجميع أفراد القبيلة، أما الفشل فكان معناه أياما وليالي عجافا. لهذا فان لرسوم ونقوش الكهوف وظيفة «سحرية وطقسية»، يمارس فيها ساحر القبيلة الواسع النفوذ تعاويذه، فيجمع فئة مختارة من الصيادين، يدلف بهم الى حجرة كبيرة وقصية من الكهف، منقوشة جدرانها برسوم الثيران والخيول البرية، يتخذ الساحر مكانه بجوارها وقد تخفى في جلد ذلك الحيوان، بينما ينهمك الصيادون في الرقص والغناء بصوت عال. وكلما مر صياد بجوار نقش الثور أو الحصان المرسوم على الجدار، توقف بعض اللحظات، ليرميه في أداء تمثيلي، بالرمح، والهدف النهائي، أن يوفق صيادو القبيلة أو الجماعة في صيدهم، وكأنهم تزودوا بقدرة سحرية هائلة.

واليوم وبعد أن مرت آلاف السنين، يجد انسان عصر الفضاء، الكثير من الجمال، والمتعة، والمغزى العميق في رؤية ميراث الأسلاف من أبناء عصور ما قبل التاريخ □

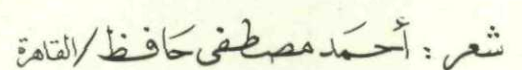
---

٤ — دراسة البروفيسير فرنسوا بوردي — المشار اليها — صفحة ٢١ بالاضافة الى المراجع السابقة: الطبعة العربية من دائرة المعرفة — المجلد الأول. مقال: الفن الرفيع أبرز مظاهر حضارة الانسان القديم للاستاذ أنور الرفاعي المنشور لمجلة قافلة الزيت — عدد ربيع الثاني ١٣٩٥هـ مايو ١٩٧٥.

— الموسوعة الثقافية (الامريكية) الطبعة العربية.



من وحي الهجرة



شعر: أحمد مصطفى حافظ / القاهرة

جاء البشير.. فيا حمائم ترجمي ... لغة الفؤاد.. ويا هزار ترنم
هذا المحرم.. قد أطل على الورى ... بجلاله.. في ليل خطب أسحم
فلعله يسرى بعمق.. نافذا ... حتى النخاع.. يقضُّ غفلة نَوم
يزجي الدروس لهم.. بذكرى هجرة ... لنبينا.. ويكون خير معلم

ما هاجر المبعوث يبغي مأمنا ... من شانئيه.. وبالأشاوس يحتمي
فنبينا هو جاه كل مطارد ... وظهير كل منغَّص متألم
أقطاب تاريخ الزمان.. زعيمهم ... يأبى الرضوخ.. لواقع متأزم
ولقد مضى صوب «المدينة» شامخا ... ليعود طودا.. للحطيم وزمزم
ويتم نصر الله والفتح.. الذي ... عمّ الجزيرة.. بالقضاء المبرم

قل للذي يخشى شراسة معتد ... اذ بالقنابل قد غدا.. كالمتخم
من راح يدعونا لحكمة كيِّسٍ ... بإزاء ما نلقاه من مُتَجَهِّم
يا ليته ذاق التشرد والأذى ... وصنوف تدمير.. بهول جهنم
..لو شاء مصباح الطريق هداية ... ما راح يشكو عقم ليل مظلم
بل قال هأنذا مضيء.. للألى ... سلكوا الطريق.. بحيرةٍ وترسُّم

جمعتْ مصائبنا مصابينا.. فهل ... جمعوا الصفوف لسحق خمسة أرقم
لا هُمَّ قد بلَّغْتُ.. فاشهدْ انني ... قد ذبتُ من غمٍ وطول تجهم
..ليكاد ينهض من ثراه مكفن ... ليروح ينفض موته.. بتبرم!
ويظل يقتحم الحتوف مناضلا ... ويعد الاستشهاد خير المغنم

هل نقتدي بنبينا وجلاده ... أم نطمئن بواقع.. متضرم؟
لله قولته التي قد خُلدتْ ... طولَ المدى.. برواء لفظ مفحم
«الشمس في يمناه.. لو جاءوا بها ... والبدر في يسراه— لم يستسلم»
أوهى الخيوط لعنكبوتٍ.. حطمت ... صلفَ العدو.. بوحي ربٍ ملهم
ان كان «آدم» بذرة للناس في ... أرض الوجود.. وكان أول برعم
فنبينا بصفاته وكماله ... كان المنار.. الى السبيل الأقوم
يا ليت لي في العبقرية ريشة ... فأمدها من ذوب قلبي.. بالدم
لتصور الآمال والآلام في ... صدقٍ.. ونشكر فضل رب منعم
ضاق البيان، فليس لي من حسنه ... الا بقايا من يراعٍ مفعم
يا ريشة الفنان حسبك موقفي ... فتأمليه.. وما بدا لك.. فارسمي




العودة إلى المواقد القديمة

اعداد: يعقوب سلام / هيئة التحرير

قد يجد المرء نفسه في بعض الأحيان تواقا للعودة الى الماضي بما فيه من اثارة وتشويق، وقد يكون هذا الميل وليد رغبة كامنة في النفس لاسترجاع ذكريات مضت، أو افتقاد أمور كانت محببة للنفس، كأن يعود الى الطبيعة بعيدا عن صخب المدينة وضوضائها بما فيها من تعقيدات، أو الميل الى احياء عادات اجتماعية اندرست مع الزمن، وكانت تشكل في الماضي ترابطا أسريا واجتماعيا. لكن مثل هذه العودة تكون اختيارية رغم توفر كل الامكانات البديلة. الا أننا في أحيان أخرى، نجد أنفسنا مكرهين على العودة الى استخدام وسائل معيشية قديمة، اما بدافع اقتصادي، أو لعدم القدرة على دفع التكاليف المتزايدة المترتبة على استخدام الوسائل الحديثة مما يجعل العودة الى الطرق القديمة هو الحل الأمثل للتغلب على هذه التكاليف الباهظة.

ولعل الكثيرين ما زالوا يذكرون أن مواقد النار التي تعمل على الحطب كوقود كانت أفضل الوسائل ان لم تكن الوحيدة آنذاك، لاعداد الطعام وتسخين المياه، والتدفئة، وغير ذلك من متطلبات الحياة اليومية. لهذا ليس بالمستغرب أن يتجه تفكير العديد من رجال



جذع شجرة متحجر يرجع الى عصر التفحم.

الصناعة وغيرهم الى العودة الى مواقد النار القديمة ووسائل التدفئة الأخرى التي كانت معروفة قبل اكتشاف الزيت.

لقد كانت هذه الوسائل معروفة للانسان منذ آلاف السنين، منذ أن وجد على وجه البسيطة، حيث كان يحتاج الى الغذاء والكساء والدفء، وبعد أن عرف النار أخذ يسخرها لقضاء حاجاته المنزلية. ولهذا كانت الغابات الكثيفة بالنسبة اليه، تشكل مصدرا هائلا للوقود فكان لا يحتاج الى كبير جهد في تأمين الحطب اللازم لاشعال النار.

ثم جاء عصر الزيت وانبثقت صناعات جديدة تعتمد على الزيت كوقود، واستفاد الانسان من هذه المادة في اعداد طعامه وتدفئة منزله وفي أغراض أخرى عديدة.

واليوم أصبح تأمين الوقود المشتق من الهيدروكربونات عزيز المنال، نظرا لتكاليفه العالية اضافة الى أن الزيت مادة ناضبة مما جعل التفكير في ايجاد بدائل للزيت هو الشغل الشاغل لعلماء الطاقة في العديد من البلدان وخاصة البلدان الصناعية.

ورغم هذه الحقيقة، فاننا ما نزال نملك مصادر أخرى للطاقة، نستطيع العودة اليها والافادة منها، بحيث تمكننا من الاستغناء عن قدر كبير من الطاقة المشتقة من الزيت، وكان أجدادنا يعتمدون عليها في اعداد طعامهم وتدفئة منازلهم وتسخين المياه اللازمة ومن هذه المصادر الفحم والحطب.

ففي الأزمان القديمة كان الحطابون ينطلقون الى الغابات ليعودوا بأحمال من الحطب على ظهور الدواب يبيعونها في أسواق المدينة، وكانت تلك تجارة رابحة يوم كان الحطب مطلوبا لاشعال مواقد النار لاعداد الطعام والتدفئة لاتقاء غائلة البرد الشديد. لكن الحصول على الفحم ليس بهذا اليسر وبتلك السهولة، نظرا الى أن الفحم يكمن في أعماق الأرض، ولا قدرة للفرد على استخراجه من تلك الأعماق منفردا، والفحم صناعة مستقلة بذاتها، ويتطلب الحصول عليه بذل الكثير من المال والجهد والتكنولوجيا الحديثة، فما هو الفحم وكيف نحصل عليه؟

هناك أنواع مختلفة من الفحم الحجري تتلاءم بصفة عامة مع عمره، وبالتالي مع المراحل المتفاوتة لتحلل وتفحم الكتل العضوية النباتية المدفونة في باطن الأرض، وكلما كان أصل هذه الكتل قديما، ازدادت درجة تفحمها وارتفعت تبعا لذلك درجة الكربون فيها، وازدادت بالتالي قوتها الحرارية. وأهم أنواع الفحم الحجري هي: فحم «الانثراسيت»، وهو نوع غني بالكربون ويرجح أن يعود تاريخه الى ثلاثمائة مليون عام أو أكثر، ويحتوي على نسبة من الكربون تتراوح بين ٩٠ و٩٥ في المائة، وفحم «ليتانثراسيت» ويتراوح عمره بين ٣٠٠ و ٢٥٠ مليون عام ويحتوي على نسبة من الكربون تتراوح بين ٨٠ و ٩٠ في المائة، والفحم الخشبي، أو فحم اللجنيت، وهو فحم حجري لم يتم نضجه، ويرجع عمره الى حوالي ٦٠ مليون عام ويحتوي على حوالي ٧٠ في المائة من الكربون، والفحم الترابي ويحتوي على نحو ٦٠ في المائة من الكربون ويشوبه بعض الماء وينتج القليل من الحرارة، وفحم «الجرافيت» ويستخدم في التشحيم الجاف وصنع كربون المصابيح والأواني ذات المقاومة العالية. وأخيرا فحم الكوك، وهو فحم حقيقي ينتج عن تقطير الفحم الحجري ويتحد مع معدن الحديد في الأفران العالية الحرارة للحصول على الزهر.

مراحل تكوين الفحم

منذ مئات الملايين من السنين، في العصر البدائي للأرض، كانت هناك غابات كثيفة مظلمة لا يقطنها سوى الحيوانات البرمائية والزواحف الضخمة والأسماك، الى جانب حشرات انقرضت تماما الآن. وكانت النباتات عبارة عن أشجار ضخمة من أنواع السرخس وغيره من الأنواع الغريبة الشكل يضاهي ارتفاعها ارتفاع بناية مكونة من خمسة طوابق.

كانت تلك المخلوقات النباتية تنمو وتموت ثم تتحلل في الأرض المبللة، وفوق بقاياها تنمو نباتات جديدة، واستمرت الحال على هذا المنوال آلاف السنين، كانت ملايين الحيوانات النافقة تختلط بالأكداس الهائلة من النباتات المتحللة، وبفعل تأثير العوامل الطبيعية التي



١ ــ ٤ ــ مجموعة من مواقد النار على اختلاف انواعها وطرزها وقد عادت الى الظهور من جديد في أمريكا وأوربا.

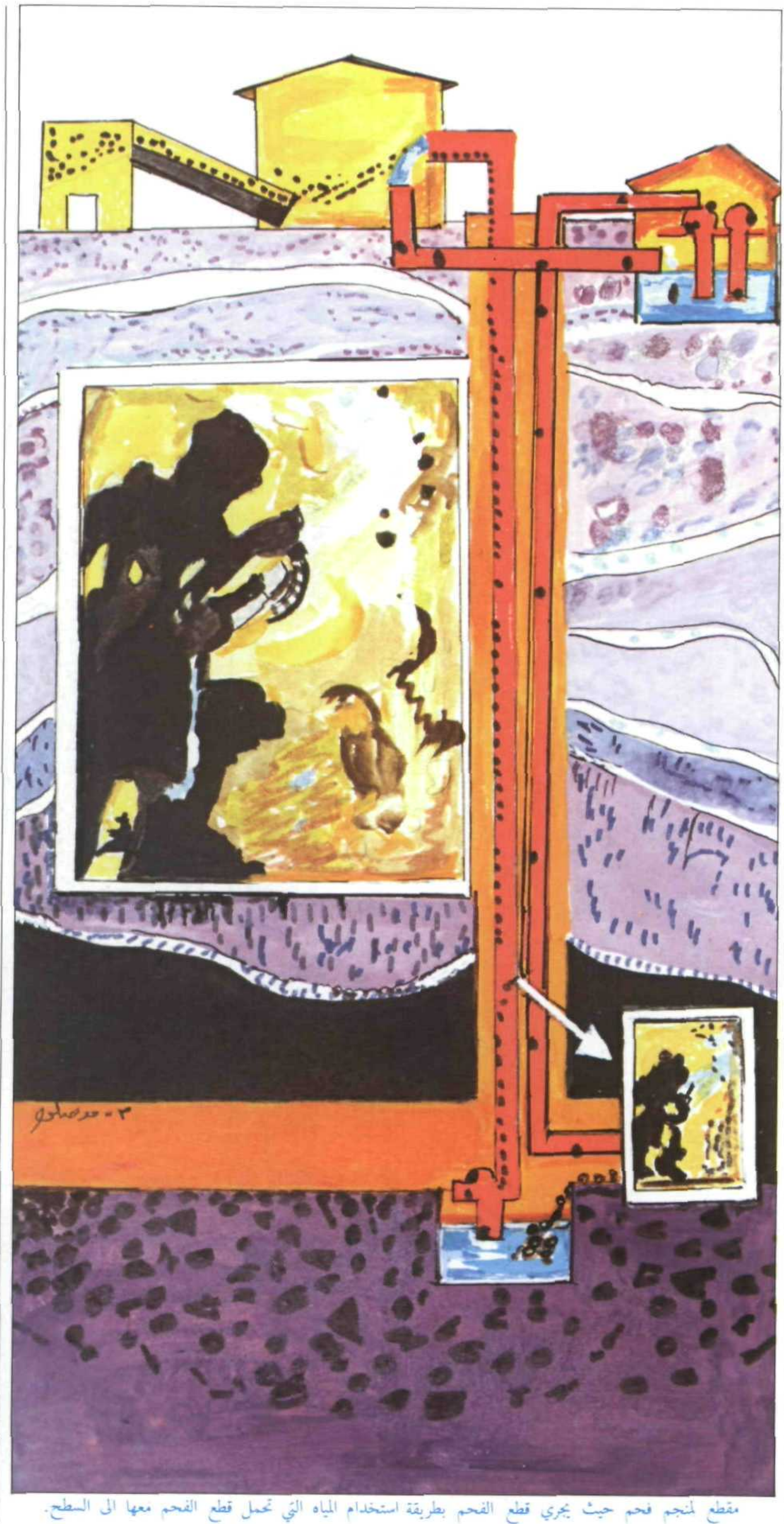


كانت الأشجار الضخمة ولا تزال مصدرا رئيسيا للفحم.

كانت تتعرض لها طبقات الأرض، دفنت تلك البقايا تحت طبقات كبيرة من الطين والرمل والحصى، وكان ذلك يعرف بعصر التفحم.

ان عملية الفحم لم تتوقف قط، فهناك مواقع كثيرة في باطن الأرض، ما زالت عملية التفحم مستمرة فيها، وهذا معناه أنه لا يزال هناك فحم في مرحلة التكوين. والفحم غالبا يوجد في باطن الأرض على أعماق تتراوح بين ٤٠٠ و٤٠٠٠ متر، وعلى شكل كتل ضخمة تدل على ضخامة الكتل النباتية المدفونة في أعماق الأرض.

واليوم ونحن نعيش عصر الحفاظ على الطاقة، أخذت مواقد الحطب تعود الى الظهور بشكل ملفت للأنظار، ليس لمجرد الحفاظ على التراث، أو الحنين الى العودة للماضي، بل لأن مواقد الحطب قد اثبتت أنها أداة فعالة وعملية في المنزل، فبعد ارتفاع أسعار الوقود المستخرجة من باطن الأرض عن طريق الحفر، أخذت الأنظار تتجه الى الغابات الكثيفة والتي تتواجد بكثرة في الولايات المتحدة واعتبار هذه الغابات مصدرا متجددا للطاقة المنخفضة التكاليف نسبيا في مجال تأمين الحرارة اللازمة لتدفئة المنازل. وعلى سبيل المثال فان شجرة واحدة من الخشب القوي كالبلوط او القيقب أو الدردار سمكها قدم واحد عند القاعدة تعطي عند حرقها حوالي ٦٤ قدما مكعبا من النار، وان ثماني أشجار مماثلة عندما تحترق في



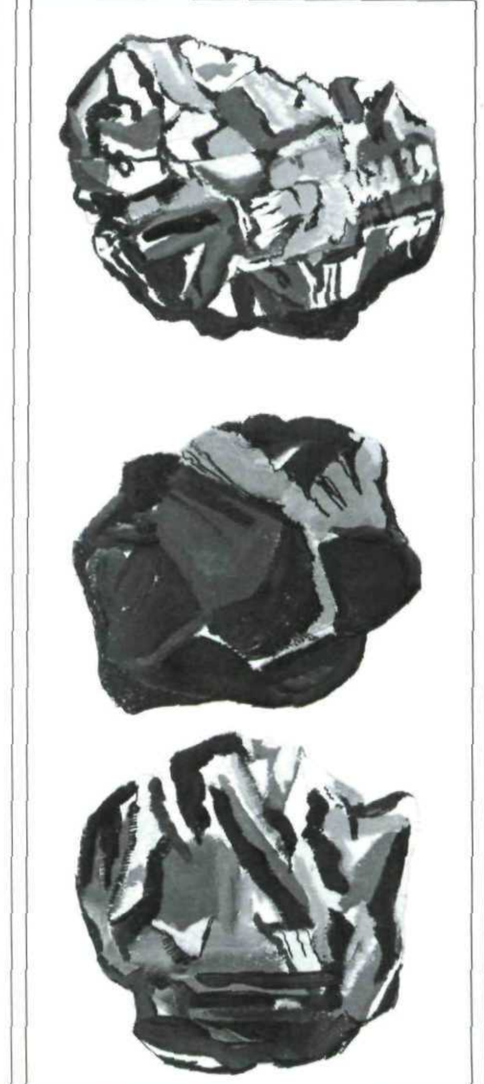
مقطع لمنجم فحم حيث يجري قطع الفحم بطريقة استخدام المياه التي تحمل قطع الفحم معها الى السطح.

موقد حديث تولد حرارة تكفي لتدفئة مساحة سكنية تبلغ حوالي عشرة آلاف قدم مكعبة ولمدة ٢٤ ساعة في اليوم من منتصف شهر اكتوبر وحتى شهر أبريل، أي لمدة تزيد على ستة أشهر.

لقد كانت أزمة الزيت التي حدثت في عام ١٩٧٣ بمثابة المحرك الفعلي لعودة ظهور المواقد في الولايات المتحدة الأمريكية، وبعد أن أحس التجار بوجود هذه السوق الجديدة لمواقد النار أخذوا يتجهون الى استيراد مواقد صغيرة الحجم مصنوعة من الصفائح المعدنية على شكل صناديق من الدول الاسكندنافية وقد كانت هذه المواقد الجديدة جميلة الشكل، واكثر فعالية في عملية الاحتراق من المواقد الأمريكية التقليدية، كما كانت تحمل أسماء مثل «جوقول» و«لانج» و«موريس». ويبلغ تكاليف الواحد منها حتى ٨٠٠ دولار. وقد احتلت مواقد النار المسماة «جوقول» المكانة الأولى في السوق حيث بلغت مبيعاتها عام ١٩٧٧ حوالي ٢٨ ألف موقد. وهناك مواقد أخرى تصنع في فرنسا وبلجيكا والمانيا وايرلندا، وقد صممت بعض هذه المواقد الأوروبية على أساس امكان استخدام الحطب أو الفحم. غير أن مواقد النار المصنوعة في المانيا والمعروفة باسم «ديسو» تعتبر أكثر المواقد المطروحة تكلفة في الأسواق اذ يبلغ ثمن الواحد منها حوالي ٩٨٠ دولارا. أما أرخص هذه المواقد فيبلغ ثمن الواحد منها حوالي ٨٠ دولارا وهي نسخة طبق الأصل من مواقد النار التي تصنع في الدول الاسكندنافية ويجري صنعها في تايوان بالصين الوطنية.

وفي الوقت الذي ازدهرت فيه تجارة مواقد النار، وتزايد فيه عدد المحلات التجارية الخاصة بذلك، في مختلف أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية الشمالية في منتصف السبعينات من القرن الحالي، بهدف التعامل بهذه السلعة الجديدة القديمة والمستوردة من الخارج، سارع العديد من أقطاب هذه الصناعة القدامى اضافة الى العديد من الشركات الجديدة، سارعوا الى وضع التصاميم الجديدة لمواقد النار واعداد مخططات الانتاج الطويلة المدى.

لقد كان تطور سوق مواقد النار سريعا



ثلاثة أنواع من الفحم تتراوح أعمارها بين ٦٠ و ٣٠٠ مليون عام تحتوي على نسب مختلفة من الكربون وتوليد الحرارة.

جدا تعذر معه الحصول على احصاءات موثوق بها. ولكن المرجح أن تكون هناك بضع مئات من المؤسسات تعمل حاليا على انتاج هذه المواقد. وقد بلغت مبيعات العامين الماضيين حوالي مليون وحدة من هذه المواقد الجديدة باحجامها وقياساتها المختلفة.

وعلى الرغم من أن حوالي ٦٠ في المائة من البيوت التي تم بناؤها خلال الأعوام الخمسة الماضية مزودة بمواقد النار، فان أصحاب هذه البيوت قد اكتشفوا أن مواقد النار المكشوفة هذه غالبا ما تكون لمجرد الزينة أكثر منها كوسيلة للتدفئة. في حالة الاحتراق الجيد في موقد النار فان معدل امتصاص المدخنة العادية للهواء في الدقيقة الواحدة يبلغ حوالي ٢٠٠ قدم مكعب حاملا معه حوالي ٩٠ في المائة من الحرارة المتولدة عن عملية الاحتراق، وفي الوقت نفسه يتم سحب ٢٠٠ قدم مكعب من الهواء البارد الى داخل المنزل في الدقيقة الواحدة عبر الفتحات الموجودة فيه.

وظل الأمر هكذا الى أن جاء «بنجامين فرانكلين» قبل قرنين من الزمن فأوضح أنه بسبب السحب غير المتوازن للهواء، فان اللهب المنبعث من أفضل مواقد النار يبعث الدفء في الجهة المقابلة للموقد فقط، ولكن المنطقة الواقعة خلف الموقد تظل شديدة البرودة. ونتيجة لهذه المعرفة، فقد تم التوصل الى اختراع «موقد فرانكلين» المشهور في عام ١٩٤٢.

ولقد كانت هذه المواقد الجديدة منذ عام ونيف تشكل حوالي ٣٠ في المائة من مبيعات الأسواق الجديدة، ولكنها أصبحت اليوم تشكل حوالي ٥٠ في المائة من هذه المبيعات، وما زالت نسبتها آخذة في التنامي رغم أن تكاليفها قد تصل الى نصف تكاليف المواقد التقليدية المماثلة.

في الوقت الذي ينظر فيه الى معظم مواقد التدفئة الجديدة المحكمة الاغلاق على أنها أقل خطرا من مواقد «فرانكلين» نظرا لتوفر وسائل السيطرة الدقيقة على الهواء الداخل لديها، الا أن صانعي مواقد التدفئة يحثون على ضرورة تفقد المباني القديمة وتفقد وسائل مكافحة الحرائق فيها قبل اشعال أي موقد من مواقد التدفئة مهما كان نوعه وجودته.

فالى أي مدى يمكن أن يستمر هذا الازدهار في استخدام الحطب كوقود لأغراض التدفئة وغير ذلك؟

ان الاجابة عن هذا السؤال تكمن في الاحصاءات التي تم جمعها في عدد من الولايات المتحدة الأمريكية وخاصة تلك الولايات التي تشتد فيها درجة البرودة خلال فصل الشتاء والتي هي أكثر من غيرها من الولايات حاجة الى اشعال مواقد النار أو أجهزة التدفئة. ففي ولاية «فيرمونت» يتم الآن تدفئة أكثر من ٥٥ في المائة من جميع المنازل هناك جزئيا باستخدام الحطب وقودا لمواقد النار. كما ان ١٢ في المائة من جميع البيوت هناك تعتمد في توفير التدفئة كليا على الحطب، وتنسحب هذه النسب على ولايات نيو هامشير وشمالي ميتشيغان وأجزاء من ولاية ويسكونسن. وقد تضاعفت هذه النسب مرة أو مرتين في عدد من الولايات منذ عام ١٩٧٣.



صورة توضح ما كانت عليه الغابات الكثيفة في عصر التفحم

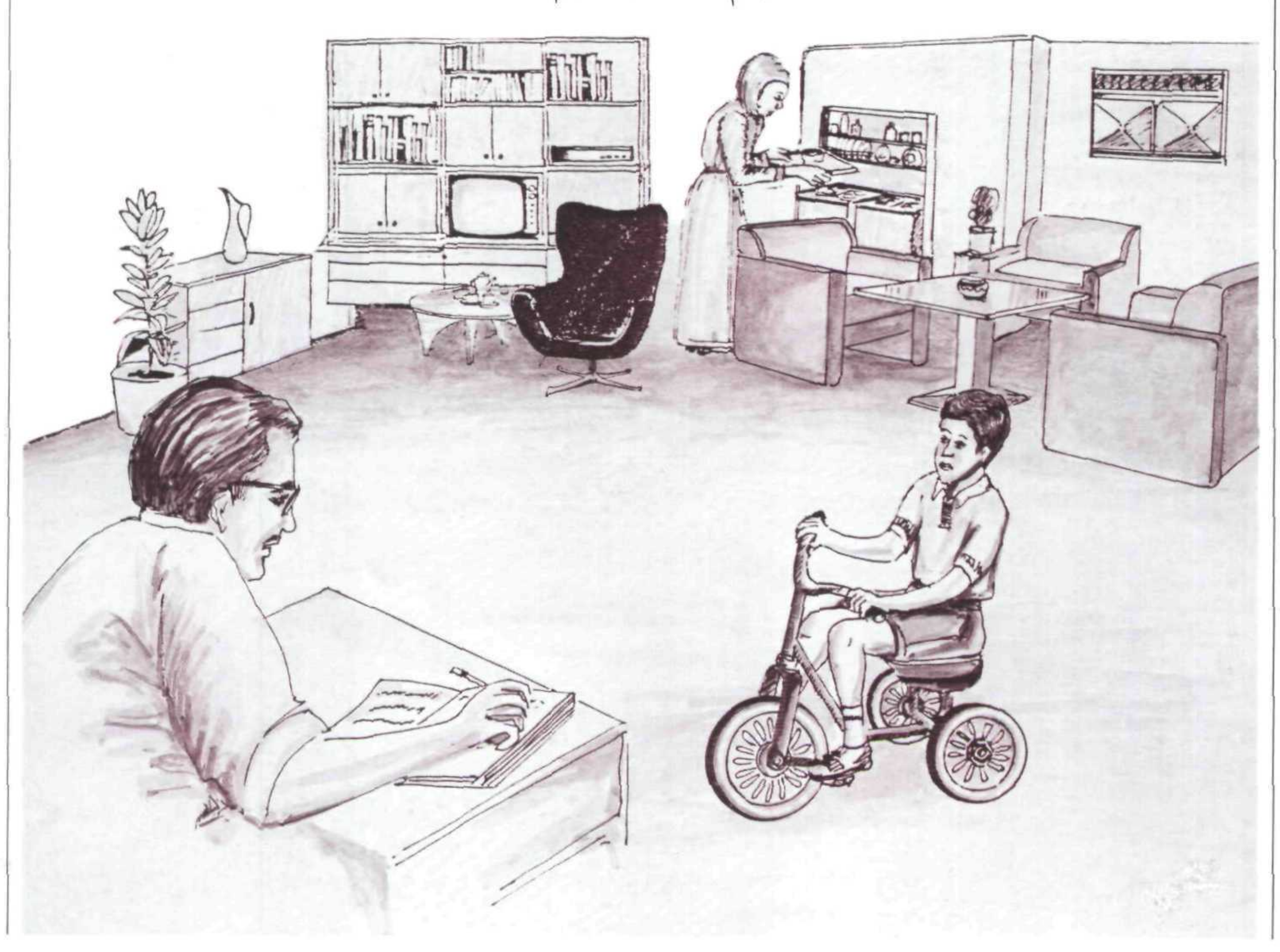
وليس من شك في أن الاقبال المتزايد على استخدام مواقد النار القديمة قد ساعد على ازدهار هذه التجارة وتنويع أصناف مواقد النار وظهور مواقد نار جديدة تعمل بالحطب أو الزيت. ومن الواضح ان قطاعا كبيرا من سكان الولايات الأمريكية الشديدة البرودة، أخذوا ينظرون بجدية الى الغابات الكثيفة المتوفرة في بلادهم كمصدر جديد من مصادر الطاقة التي يمكن الاستفادة منها في مجالات التدفئة المنزلية وغيرها من الاحتياجات اليومية، اضافة الى أن الرائحة المنبثقة عن احتراق الحطب هي خير بديل مقبول للرائحة المنبثقة على الوقود الهيدروكربوني □

من تصرفاتنا مع الأطفال

بقلم: محمد عبد الرحيم عدس / عمان

كلنا يحب أطفاله ويرجو لو يكونوا على الصورة التي يرسمها لهم في مخيلته، ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، غير أن هذه الرياح قد نكون نحن السبب في جريانها بفعل بعض تصرفات نقوم بها تمليها علينا العاطفة أحيانا، والقيم التي نؤمن بها أحيانا أخرى، واللامبالاة التي تنتابنا بفعل الارهاق ومسئوليات العمل.

فالكل منا يحب أن ينمي في أطفاله روح التعاون، وحب المشاركة والبعد عن الأنانية ولكن قلّ من يفطن منا الى أننا بتصرفات منا لهم غير مقصودة تبعدهم عن هذا الهدف النبيل فكثيرا ما نسارع نيابة عن أطفالنا الى تقديم شيء مما معنا لأصدقائهم، أو لمن يزورنا من أطفال الجيران، وكل هذا بدافع الحرص على أن ينال أطفالنا النصيب الأوفى، وغير المنقوص واذا ما خرجنا معهم في نزهة قصيرة، أو في جولة للسوق، سارعنا لشراء ما يطلبون منا دون أن نأخذ باعتبارنا مدى حاجتهم اليه، وقد ندفع لهم بمصروفهم ثم نشتري لهم ما يريدونه، حرصا منا على أن يشعروا بأننا نغدق عليهم عطفا ومحبة وانهم عندنا في المقام الأول، ولمتطلباتهم الأولوية على ما عداها، دون أن نكلفهم أن يتحملوا مثلا ولو جزءا بسيطا من هذه النفقات يغطونها من بعض مصروفاتهم الخاصة، حتى يشعروا بالمسئولية ويعملوا على تقديرها ومن ثم القدرة على تحملها في المستقبل فيعتمد الواحد منهم على ذاته، ويقوم على تدبير شئونه الخاصة بنفسه. فان أيا منا لا يقدّر



الأمر حق قدره الا اذا عايشه، وشعر بالجهد الذي يبذله في سبيله، وبالمتعة التي يحس بها اذا ما حالفه الحظ وأثمر جهده، وقد توزع الأم على أطفالها بعض الحلوى مثلا، فاذا قدم أحد الأخوة الغائبين أو احد الضيوف وأراد طفلها أن يقدم له بعض ما معه، تطوعت هي بتقديم ما معها له كله أو بعضه، انها ترغب أن ينال طفلها كل شيء ولا تريد منه أن يتخلى عن شيء مما معه واذا سئلت عن ذلك، أجابت انها تحب طفلها وهي بالتالي تحرص على أن يأكل طفلها ما معه وانها تؤثره على نفسها حين قامت بالتنازل عما معها لأخيه أو ضيفه.

ان مثل هذا التصرف يعود على الطفل بالأنانية وحب الذات ويبعده عن المشاركة وحب التعاون.

ولقد ذهب بعضنا الى أبعد من ذلك فقام هو بحل واجبات أطفاله المدرسية تخفيفا عن كاهله لصعوبتها أو كثرتها، واعفائه مما يوكل اليه، وقد يتهاون في ذلك فيتسامح في مراقبته ومتابعته.

ان مساعدة الوالدين لطفلهما واجب ليس في نطاق الواجبات المدرسية فحسب، وانما في جميع المجالات، ولكن حيث ما كانت هناك حاجة تدعو لذلك. فلا تقدم له المساعدة دونما حاجة أو دونما حساب.

وعلى الوالدين أن يفهما أن المساعدة شيء والاعفاء من الواجب شيء آخر. وان المساعدة هدفها الأول هو العمل على الأخذ بيد الطفل ودفعه في الطريق الصحيح ليتولى هو الأمر بنفسه فيما بعد ليكتسب من ذلك دراية وخبرة تكونان عونا له على شق طريقه في المستقبل.

وكثير منا يحاول أن يعفي أولاده الذكور من واجبات مترتبة عليهم بحكم كونهم أفرادا في العائلة، ويكلون ذلك الى الاناث دون الذكور بحكم كونهن اناثا ليس غير، وقد يكون هذا ناجما عن تقليد في مجتمعنا العربي حيث يتمتع الذكور بمركز لا تحظى بمثله الاناث، اذ ما زلنا نتعلق بأهداب الماضي ـــ عن قصد أو غير قصد ـــ فننظر للذكور نظرة تختلف عنها للاناث.

ان هذا الاتجاه قد يخلق عند اطفالنا حب الذات وعقدة التفوق، ويجنبهم التحلي بالعمل بروح الفريق الواحد وليس هذا فحسب، وانما نحن كثيرا ما نحاول أن نقوم بالكثير من الأعمال المنزلية التي من الواجب أن يشارك فيها الأطفال بدافع من اعزازهم وتكريمهم، وبخاصة اذا كان الطفل هو الوحيد في العائلة، فنحن نخشى عليه من كل شيء، حتى من المشي أو القفز، أو القيام بأي عمل مهما كان بسيطا مخافة أن يلحق به ضرر، أو يصيبه أذى. وما درينا أن الضرر الأكبر انما ينجم عن ممارستنا لهذا النوع من التصرف وليس لممارسته لنشاط غير مرغوب فيه.

ونتيجة لذلك فقد تعوّد العديد من أطفالنا أن تقوم أمهاتهم أو أخواتهم بكل ما يلزمهم من خدمات، واعتمدوا عليهن في ذلك لدرجة كبيرة في اعداد الطعام، وغسل الصحون، وتنظيف الأدوات وكي الملابس، فقد يكون لدى الواحد منهم رغبة أكيدة في شرب فنجان شاي مثلا، ولكنه يعلق هذه الرغبة حتى تقوم احدى شقيقاته بصنع الشاي وتقديمه له، وحتى لو كان الجميع موجودين، فان اتجاه الوالدين في الأغلب يقوم على تكليف البنت أو الولد الأصغر بتلبية رغبة الأكبر عملا باحترام الصغير للكبير، ومع ان الاحترام صفة واجبة، الا أنه يجب أن لا يكون احتراما من طرف واحد، وانما يجب أن يكون متبادلا بين الطرفين وان لا تخلق المبررات لعدم قيام أي من الأطفال بدوره في العائلة صغيرا كان أو كبيرا.

ولا يقتصر الأمر على ما سبق فحسب، وانما يحدث في أغلب الأحيان أن نفضل الأكبر على الأصغر ونراعي شعوره ونؤدي له حقوقه بشكل يفوق اهتمامنا بالصغير.

واذا أساء الأكبر التصرف مع الأصغر فعلى هذا ان يتحلى بروح الصبر وضبط النفس، فلا يتفوه بكلمة تنمّ عن التذمر والضيق، واذا ما حدث هذا صرخنا في وجهه: احترم اخاك فهو أكبر منك وليس من اللياقة والأدب أن تتكلم معه بمثل ذلك أو بهذه اللهجة.

ان في مثل هذه المعاملة ما يرسخ الاعتقاد عند الصغير بأنه مهضوم الحق، وانه أصبح فردا في العائلة من الدرجة الثانية، وفي تصرفنا معه مناقضة صريحة لموقفنا، اذ كيف نبيح للكبير ما نحرّمه على الصغير، وفي وقت من المفروض فيه أن يكون الأكبر منهما أكثر نضوجا، وأقدر على التحلي بالصبر وضبط النفس. ان احترام الغير أمر واجب ولكننا لا نستطيع أن نفرض احترامنا على الغير وانما نحصل عليه بتقدير الآخرين والاحساس بشعورهم والاهتمام بهم، ومن واجبنا أن نشعر الطفل بأهميته وكيانه، وبأن له حقوقا تجب مراعاتها، وان عليه واجبات يجب الوفاء بها.

صرخ أحد الأطفال مرة في وجه أهله يقول: لماذا تطلبون مني أن أحترمه ولا تطلبون منه أن يحترمني؟ لماذا لا تعاملونني بمثل ما تعاملونه به؟ أولست أنا انسانا مثله؟.

ان سنّة الحياة تقتضي منا الأخذ والعطاء كما تقتضي منا المشاركة، وعلينا أن نعزز هذا الاتجاه عند أبنائنا في كل مجال، في البيت وفي المدرسة وفي المجتمع، والصغير منا لا يدرك القيم التي نؤمن بها لأنها بعيدة عن واقعه، ومن الأفضل أن نعايش واقعه لنرقى به فيما بعد الى مستوى المثل.

دخل المعلم يوما غرفة الصف فوجد فيها الأوراق مبعثرة مما جعل منظرها لا يبعث على الارتياح، ولما سأل طلابه عن وضع الصف أجابوه بأنهم ليسوا أذنة وانهم انما قدموا ليتعلموا فما كان من المعلم الا أن قال: ترى لو مرض الآذن، أكنتم ترتاحون بالجلوس في غرفة ليست نظيفة؟ وما رأيكم لو تعاون كل منا فالتقط ما حوله من أوراق، ووضعها في سلة المهملات، وهل يكلفكم هذا جهدا ووقتا كبيرين؟ واقتنع الطلبة بالفكرة، وأصبح الجميع من ذلك الحين يشاركون في نظافة الغرفة، ويتعاونون على اظهارها بالمظهر اللائق.

وكم يكون جميلا لو راعينا هوايات اطفالنا، وساعدناهم على تنميتها. اذن لاكتشفنا مواهبهم، وكسبنا ثقتهم ومودتهم.

طفل في العاشرة من عمره يهوى الرياضة، ويحب أن يقضي معظم وقته في الملعب، وكثيرا ما كان يذكره الأب بضرورة الالتفات لدروسه، والاقبال عليها ومراجعتها، فاذا ما قدم يستأذنه أقبل على وجل واذا ما حصل على اذن بممارسة هوايته أقبل على والده يقبله بكل حنان ويعده بأن يبذل جهده في المذاكرة والاستعداد، وهو يقول بلهجة تنم عن الصدق: سأبر بوعدي، وسترى صدق هذا الوعد. وفعلا كان الطفل يبر بوعده.

ان مثل هذا الطفل لو حرم من ممارسة هوايته المحببة وحبس للدرس والمذاكرة لن يستفيد شيئا، فهو مشتت الانتباه، شارد الذهن، يسوده القلق والتوتر، أما وقد أشبع هوايته فقد أصبح لديه الاستعداد للقيام بواجبه، ولديه الرغبة الأكيدة في ذلك، فيقبل على الدرس بروح معنوية عالية، وراحة نفسية، وفي مثل هذا يتعلم كيف ينظم وقته ويمسك بزمام المبادرة، فيقدر واجبه وضرورة القيام به.

ان مثله في اشباع هوايته للانصراف بعدها لما يترتب عليه هو مَثَلُ الجائع الذي لا يقبل على أي عمل الا اذا ملأ معدته، أو المتعب الذي لا يعود لمزاولة عمله الا اذا استرخى، وزال عنه تعبه، ومع كل هذا فعلى الوالدين أن لا يتركا الأمر يسير على عواهنه، وانما يتابعانه ليفي بوعده، وهو في هذه الحالة لا يعتبر الأمر مفروضا عليه من الخارج، وانما هو نابع من ذاته، يقوم به مع شيء من الجد، وتخفيف من بعض القيود، وحينئذ يثمر كل جهد له، ويزيد من احتمالات جده وفرص نجاحه □



تأليف : فؤاد عبد الحميد عنقاوي
مراجعة : بكر عباس / الظهران

يحاول المؤلف في هذه القصة أن ينقل صورة للحياة في مكة المكرمة في الثلث الثاني من القرن الهجري المنصرم، فهو يبني الأحداث ويقيم المواقف في لباقة ليرسم بتفصيل دقيق مناظر الحياة في البيت والشارع، في المتجر والمقهى، في الأفراح والأتراح، حتى في الصلوات في الحرم وفي مشاعر الحج وركب المسافرين الى المدينة المنورة والمصطافين في الطائف. وهو يحرص على تسجيل الأهازيج والأطعمة والعادات وكل أوجه الحياة الاجتماعية تقريبا دون تعمد أو افتعال، فتأتي الصورة مفعمة بالحيوية مليئة بالحركة. وقد زادها قربا من الواقع استعمال المؤلف في ذلك كله للمصطلح المحلي والعبارات الدارجة دون تصيد لها أو اقحام، ودونما اسراف. وهنا لا بد أن أعترف بأن كثيرا من المصطلحات والعبارات يتعذر علي فهمها على وجه الدقة، ولكن هذا لا ينتقص من وقع الصورة في النفس، وادراك المحتوى الكلي لها، وتتبعها دون ضجر أو ملال. وأنا لا أجد ضيرا في التوكؤ بهذا القدر على اللهجة العادية والعبارات الدارجة، لأنها تزيد القصة واقعية وحياة، وانما الذي أنكره هو الاسراف في استخدام العامية اجتلابا للواقعية دون ضرورة فنية أو حتى اسلوبية. فالقصة فيما عدا ذلك كتبت باسلوب رصين وعبارة سليمة قد نستكثرهما في بعض المواقف لاختلال التوازن بين القائل ومقولته، أما لاعتبارات السن أو المستوى الثقافي.

وقد يسر ذلك للكاتب اختياره موضوعا لقصته حياة أسرة مكية يتحرك أفرادها في اطار زمني ومحتوى بيئي معينين. ومكنه تنوع الشخصيات واختلاف طبائعها وتطور الأحداث التي تمر بها من رسم مختلف عناصر البيئة ووجوه الحياة فيها في صورة متلاحمة متكاملة رغم كثرة الخطوط والألوان، ودقة التفاصيل والظلال. ومن هنا، ومن حدة الصراع والتفاعل بين شخصيات القصة أو في ذاتها، وتحرك الأحداث بها، جاءت القصة محكمة البناء جيدة الحبك، تشد القارئ اليها وتستحوذ على انتباهه باستمرار. لقد رسم الكاتب خطة —كما صرح في مقدمته— ونفذها بقدر كبير من النجاح.

وعقدة القصة في خطوطها العريضة واضحة لا تعقيد فيها: الشيخ أحمد ياسين تاجر ميسور الحال، توفيت زوجته (هدى) تاركة له ولدين «خالد وسعد»، فتكفلتهما جدتهما لأبيهما، ولكنها لا تلبث أن تموت هي أيضا،

فيحضر الأب لها مربية (سارة) ترعاهما، وهو طول الوقت لا يفكر في الزواج حرصا على راحة ولديه، ثم يزين له أصدقاؤه الزواج فيتزوج ابنة ذلك الصديق (زكية)، وهنا تبدأ مشاكل الأسرة .سعد لا يطيق أن يرى امرأة في الدنيا بعد ذهاب أمه، والأب منهمك في لذة الحياة الجديدة واقع تحت سيطرة زوجته الآسرة . وعندما يحتدم الخلاف ويتضح أن الزوجة عقيم يقرر الأب حل المشكلة بالزواج من شابة (نادية) في عمر ابنه الأصغر أو دون ذلك، فتزداد الأمور تعقيدا، ويترك سعد البيت ليعود اليه في مرض الموت، ويطلق أحمد ياسين زوجته الأولى، وكان خالد قد سافر الى امريكا ولكنه يقطع دراسته، عندما يأتيه نبأ وفاة والده بالسكتة القلبية، ويعود لتستمر الحياة على وتيرتها.

لقد كان موت هدى أول حادث هز كيان الأسرة فقد كانت «تقطر عذوبة ورقة، متفتحة كالزهرة، ناضجة الفكر، راجحة العقل، عفة اللسان، سمحة الوجه... جميلة، أنيقة، جذابة، عرفت بخفة الروح والدعابة اللطيفة والنادرة الحلوة»، وهي الى جانب كونها زوجة مخلصة ودودا، كانت أما رؤوما تشيع في نفس طفليها الطمأنينة والسعادة في جو من المحبة والتسامح «وتربي في نفسيهما الحب.. حب بعضهما، وحب أبويهما، وحب الناس أجمعين»، فأي امرأة يمكن أن تملأ مكانها.. على الأقل في نفسي الطفلين. فالجدة «صارمة بطبعها، عنيفة في مظهرها، جافة الأخلاق، خشنة النظرات، سليطة اليد، ذلقة اللسان.. ان ابتسمت فللسخرية، وان جاد عليها الزمن بضحكة صدرت عنها كفحيح الأفاعي». وما كانت المربية، رغم كل ما أبدته من لطف ورعاية وحنان، لتسد مسد هذه الأم. ومن هنا كان الفراغ الكبير في حياة أحمد ياسين وفي حياة ولديه. وقد حاول هو أن يعوض الولدين بعض الحنان الذي افتقداه، ولكنه كان أكثر تشاغلا بأعماله وتجارته.

ثم جاء الحدث الثاني نتيجة متأخرة للحدث الأول، وتعميقا جديدا للصدع الذي أحدثه على مر الزمن. لقد امتنع احمد ياسين عن الزواج سنين طويلة بعد موت هدى صابرا على ألم الوحدة، مدافعا نوازع الرغبة، حرصا على سعادة طفليه فلا يتركها «يعيشان مع امرأة غريبة عنهما تذيقهما المر وتذلها»، وانتهى به الأمر الى التجهم الشديد والعزلة. ولكنه عندما زين له صديق معاودة الزواج، وكان الولدان قد كبرا نوعا ما، أخذ يقلب منطق الامتناع عنه الى مبررات الاقدام عليه. فدخل النكد والتعس الى الأسرة واستقرا فيها. لقد كان أحمد ياسين عندما تزوج من زكية قد ضرب —على التقدير— بعيدا في أربعينات عمره، وكانت هي قد جاوزت السادسة والعشرين. وكانت زكية مثالا مجسدا لزوجة الأب كما رسخها المجتمع في الأذهان. فغريزة التملك والتسلط عندها لا تعرف حدودا، وهي تدرك بغريزتها ضعف زوجها وكيف تشده حول خنصرها كلما دعاه التعقل الى أن يحزم أمره ويوقفها عند حدها.

ولما تبين أنها عقيم وجد أحمد ياسين العزاء في حكمة الله عز وجل الذي «يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور، أو يزوجهم ذكرانا واناثا، ويجعل من يشاء عقيما». ولكنه عندما ضاق ذرعا بتسلطها وهفت نفسه الى «نادية» الصبية المتفتحة، أخذ يبرر اقدامه على الزواج منها بأنه «مشتاق الى طفلة أو ولد» وبأن «الله حكيم في صنعه، عليم بخلقه، وكريم اذ أباح لنا الزواج من واحدة واثنتين وثلاث وأربع»، وان اعتراض زكية على زواجه حماقة تحاول ان تمنع بها ارادة الله وتفسد حكمه. ومن هنا هبت على البيت عاصفة لم تهدأ الا بطلاق زكية وموت سعد الابن الأصغر وموت أحمد ياسين، وعصفت بآمال خالد الابن الأكبر وهو في أول الطريق فلم تدعه يتم دراسته.

ولكن ما الذي يريد أن يقوله الكاتب؟ هل هي مجرد صورة من الأحداث الواقعية ليرسم من ورائها الخلفية التي أراد أن يسجلها للحياة والعادات والتقاليد والأهازيج في تلك الحقبة لئلا يطويها النسيان؟ ان كان الأمر كذلك فانه يكون —كما يقول المثل الانكليزي— قد وضع الفرس خلف العربة، لأن الخلفية يجب أن تبقى ثانوية بالنسبة الى القصة نفسها لمجرد كونها خلفية تكسب القصة عمقا وحيوية دون أن تطغى عليها وتستأثر بالغاية دونها. وأما ان كان يريد أن ينبه من خلال القصة على بعض الأدواء الاجتماعية، فان القصة تسير في طريق تعترضه عقبات عديدة.

والعقبة الأولى هي النظرة المتشائمة الى المرأة. فالمرأة الوحيدة الفاضلة في شخوص القصة الرئيسية هي هدى التي أحيطت بهالة من الطهر والجمال والأمومة، ولكنها امرأة مثالية رسمت من الذاكرة بكثير من خصائص الزوجات المرثيات. أما النساء الأخريات فهن دونها بمراحل من وجه أو آخر. فالجدة رأينا صورتها، وزكية أنثى لا تعرف سوى الغرائز الحيوانية بأنواعها، ونادية فتاة جميلة تكن في نفسها رغبات آثمة يمنعها القدر من تحقيقها، وسوزي الطالبة الأمريكية صائدة لذة بتبريرات ثقافية، حتى عزة التي أحبها خالد وعاهدته على الوفاء تطوي الصدر على الألم وتتزوج من ابن عمها دون ان تبدي اعتراضا.

أما الرجال فليس فيهم شرير واحد، وان أخطأ أحدهم فان كل ابن آدم خطاء. فأحمد ياسين أخطأ عندما ترك شهواته تستولي عليه وتعميه عن الشر والأنانية في نفس زكية، وتزين له الزواج —وهو على أبواب الشيخوخة— من فتاة دون العشرين. ولكنه يدرك خطأه عندما وقع تحت وطأة السن والمرض، ويتسرب الندم الى نفسه فنشفق عليه. وخالد خرج عن الصراط السوي عندما صدم في حبه واستسلم لشهواته، ولكنه لم يلبث أن أفاق ورجع الى عقيدته السمحاء ومبدئه القويم رازحا تحت أحمال ألقتها المقادير على كتفيه دون اختيار منه، فيستدر عطفنا عليه وشعورنا معه. وسعد الذي رفض كل أعراف المجتمع ومواصفاته، ولم يؤمن بشيء الا بقوة ذراعه، يدرك خطأه عندما هدّه المرض ووهنت منه الذراع، ويعبر عن توبته في مناجاة طويلة على فراش الموت تغسل من نفوسنا كل ما أخذت عليه.

والعقبة الثانية هي ان جميع شخصيات القصة تتحكم فيها قدرية لا قِبَلَ لها بها أو بالخروج على حكمها. فأحمد ياسين أب حان على ولديه، ورجل عاقل، مستقيم في تعامله مع الناس، عميق في تدينه، يؤدي صلواته في الحرم، ويرضى صابرا بحكم الله وقدره، واليه يفزع طالبا الهداية والعون والصلاح. ومع ذلك

فان هذه الأخلاق والشمائل لم تحمه من جريرة الخطأ ولم تجنبه العثار. وخالد تلميذ مجد في دراسته، وشاب رقيق مهذب كريم الخلق وحسن الأدب، ميال الى الرسم والموسيقى، عظيم الاحترام لوالده ومربيته، حسن التعامل مع الناس وفيهم زوجة أبيه، جم التواضع مع من هم دونه يسرا وجاها، راسخ العقيدة حسن التدين. فهو ان شئت النموذج الأمثل للشاب الطيب، أو هو بين الشباب الصورة الموازية لصورة أمه بين النساء. غير أن أول ريح هبت عليه — عندما بلغه ان عزة قد زوجت من غيره — زعزعت كل ذلك في نفسه، وطوحت به في حمأة الخطيئة والانسياق وراء الشهوات، ولو الى حين. ونادية ابنة نعيم التاجر السوري فتاة جميلة ربيت على الفضيلة والتدين، ونالت قسطا من التعليم، ووصفت — رغم شبابها — بأنها راجحة العقل، ومع ذلك فانها لا تشتد في الاعتراض على الزواج من احمد ياسين طمعا في أن تكون قريبة من سعد الذي تسر له هوى في نفسها. وحتى عندما مرض سعد وأخذت نادية تعتني به، لم يكن تمريضها له وسهرها عليه بدافع التطهر من حب شريف قديم، لفتى أصبحت هي في مقام أمه، أو رأفة بانسان شقي يعاني سكرات الموت، وانما انجرافا وراء رغبة آثمة قديمة عملت على تنميتها فهي تهتبل فرصة لارضائها.

فاذا كانت التربية الفاضلة، والخلق القويم، والتدين الصحيح، والعقل الراجح، والتعليم السليم... اذا كانت هذه كلها لا تحمي من عثار ولا تقي من انزلاق ولا تمنع من خطأ أو خطيئة، فأين المهرب واين سبيل النجاة؟ والجواب على هذا ذو شقين. أولا لا مفر من القدر. فموت هدى، وهو من فعل القدر، هو الذي شكل شخصية سعد على النحو الذي صارت اليه، وسعد هو أقوى العوامل المحركة في القصة، كما سأبين فيما بعد، ومن ثم فان كل ما مرت به الأسرة هو نتيجة مباشرة أو غير مباشرة لذلك الحدث. وثانيا ان في نفوسنا شيطانا رجيما من رغائبنا ان تركناه يفلت من عقاله لحظة طغى على كل فضيلة أو تعقل فينا، ولقينا منه الويل كل الويل. ولكن كيف نكف من غربها ان لم تمنعنا فضائلنا من شرورها؟ مرة أخرى نجد في سعد النموذج المغالي في كف الرغائب. والجواب في شقيه يبعث على كثير من اليأس والاحباط.

أما سعد فهو العقبة الثالثة في سبيل غائية القصة. فبعد أن توفيت أمه وهو صبي صغير رفض المرأة باطلاق حتى جدته والمربية، ورفض المدرسة وتعليمها، ورفض المجتمع وأعرافه وتقاليده حتى أبسط ضرورات الأدب في احترام أبيه ومربيته واللياقة في معاملة الضيوف في بيته، لا بل انه رفض أن يحمد الله عندما قال له أخوه «احمد الله». ولم يعد يؤمن بشيء الا بالتفوق على أقرانه في الفتوة — أو «المشكلة» كما يسميها الكاتب — والعابها وأغانيها. وبعبارة أخرى فانه النقيض لأخيه. ولذلك فاننا اذ نرى خالدا منطويا على نفسه، يبدي رأيه ثم يرتد الى قوقعته، نجد سعدا جهيرا بآرائه الملتوية في الحياة، عنيدا في معارضته لما لا يريد، مندفعا مشتدا في معاندته كل موقف يسوءه، لا يثنيه عن خطه أو غيّه نصح أو توبيخ من أية جهة أتى.

ومن هنا كان طبيعيا أن يرفض سعد زوجة الأب أيا كانت. ولذلك قامت قيامته يوم علم أن أباه سيتزوج، وتنكر لزوجة أبيه قبل أن يعرفها أو تبدر منها بادرة تسوؤه، وتعالى عليها قبل أن يناله منها أذى. فالصراع بينهما اذن نتيجة حتمية مهما تكن زكية صالحة أو طالحة. «ان أمي ماتت... ومات معها شعوري بحب كل امرأة، وضاع في ذكرياتها احترامي للأخريات». ولذلك فان عزم زكية على تطويعه لتكون سيدة في بيتها فيه كثير من الدفاع عن النفس. لهذا اضطر الكاتب الى كشف تصرفات ونوايا سيئة أخرى من جانب زكية ليقنعنا أن زوجة الأب، أو على الأقل هذه الزوجة، شريرة. أما الأب فلم يشأ أن يفقد أبيها، ومن ثم كان يسعى الى احلال نوع من «التعايش السلمي» في بيته. ولكن الكاتب يحملنا على الاعتقاد حملا بأنه كان متهاونا مع زوجته، منساقا وراء لذته، مهملا لولديه.

ولما عزم الأب على الزواج مرة أخرى جن جنون سعد، وفي موقفه هذه المرة ما يبرره. وفي هذه المرة رفض أسرته وبلده كلية، وترك البيت لينضم الى الركب الذاهب الى المدينة المنورة بعد تقريع للاسرة على اهمالها اياه صغيرا ليشب على الشر والحقد، وتوعدها بانتقام سلبي غريب: «ستندمون.. وستجدون أني أصبحت عارا عليكم وسبة في جبين الأسرة».

وعندما مرض في غربته، وفقد مقومات الفتوة في جسمه، وأتى أبوه ليعيده الى كنفه أثاب اليه رشده، وندم على ما ألحقه بأسرته من هم وشقاء. ولكن المرض يلازمه فتعتني به نادية. وهنا يذهب الكاتب في التدليل على هول خطأ أحمد في زواجه من صبية صغيرة الى النهاية القصوى. وعندها يصبح موت سعد ضرورة يحتمها منطق الأحداث. ولكن أثره في حياة الأسرة لم ينته بموته. فان تبرج زكية فرحا بموته دفع أحمد ياسين الى طلاقها، وانتابته هو الهموم والأحزان والأمراض حتى قضت عليه، فاضطر خالد الى قطع دراسته والعودة الى بلده ليحمل تركة الأثقال التي خلفها له أبوه، وليمارس نوعا من الحياة لم يخطط له وانما فرضه عليه القدر.

لقد أضفى الكاتب على شخصية سعد من القوة وعلى بيانه من الاقناع — وخاصة في موقفه من زواج والده بالمرأتين، وفي تقريعه لأسرته وقت هجره اياها وفي مناجاته لوالده ولنفسه على فراش الموت — ما يرفعه الى درجة البطل المأساوي ويجعل القصة تبدو وكأنها كتبت من وجهة نظره. وهو الى جانب ندمه ينسب كل ما أصابه الى كونه طفلا ضائعا فقد الرعاية، وحرم القلب العطوف والصدر الرحيم، فلم يكن في مقدوره أن يخط لنفسه «مسيرة للحياة الوادعة». وفي حديثه الى أبيه وفي مناجاة أبيه لنفسه بعده ما يشبه الطلب منا بأن نتناسى حماقاته السابقة وان ننسبها الى طيش الصبا. فالكاتب يريدنا أن نراه فتى شهما لم يكن له ذنب في ما أصابه أو أتاه، وانما هو ضحية ظروف لم تكن له يد فيها وأدواء اجتماعية لم يكن مسئولا عنها. لا بل ان رأيه في زوجات الآباء مهما يكن هو الذي تثبت الأيام صحته، ورفضه للمرأة نجد له في واقع أبيه ثم أخيه أكثر من مبرر. ومن هنا نجا سعد من الوقوع في الخطيئة بانصرافه عن مصدر الشر جملة، فظل بذلك أطهر الثلاثة. ولكن هذه نقلة من نقيض الى نقيض، وخروج بالانسان عن حده الطبيعي □

في الأسلوب القرآني

"رؤية قديمة" -١-

بقلم: د. محمد أحمد العزب / المدينة المنورة

نقصد هنا من مصطلح (الأسلوب): تلك الطريقة الفنية التي عالج بها القرآن الكريم مضامينه وقضاياه، واستوى بها على الأوج من بلاغة الوصف، وبلاغة السرد، وبلاغة التصوير، وبلاغة الاعجاز.

وقد آثرنا — في التحدث عن أسلوب القرآن — أن نخلي بين طائفة من القدماء والمحدثين وبين تناول هذه القضية البالغة الجلال، وأن تكون هذه الطائفة ممثلة الى مدى بعيد لاتجاهات أجيال العلماء الذين خاضوا في هذا الصدد، على نحو هائل من العمق، وذكاء الاجتهاد، وشمول الرؤية، ومحاولة التأصيل والتنظير.. ولعل الباقلاني وعبدالقاهر في القديم، وطه حسين وسيد قطب في الحديث يمثلون معا أروع ما قيل من هذه الوجهة، على تفاوت في التناول، واختلاف في منظور الرؤية، وتباين في تجسيد المقولات.

وقد يقتصر دورنا في ايراد آراء هؤلاء على سلسلة قضاياها، ووضعها في مناطها الصوابي، حتى تكتمل الرؤية المنهجية لهذه القضية الخطيرة.. وربما يمتد هذا الدور قليلا ليصبح مدخلا الى شيء أو اضاءة لشيء، وهذا طموح نأمل أن نكون منه على قريب.

ولقد يطامن من قيمة كل فعل في هذا المجال، حجم ما بذل علماؤنا في القديم والحديث معا من معاناة وبذل، وحجم ما استشعروا — مع كل هذا البذل وهذه المعاناة — من تهيب أمام حقائق البيان الالهي في القرآن، مما يؤكد أن للقضية أولا وقبل كل شيء قضية قصور آدمي يحاول أن يفهم عن الكمال الالهي المطلق، مجرد محاولة، قد تفلح مرة، وقد تبوء بالاحباط مرات ومرات.

كان (الباقلاني) واحدا من طلائع الذين تأملوا الظاهرة الأسلوبية في القرآن الكريم في كتابه (اعجاز القرآن) وعارضها في كل مجلى من مجاليها بقمم ما أبدع الشعراء والأدباء شعرا ونثرا على السواء، ليصل من ذلك كله الى حقيقة تفرد الأسلوب القرآني في نظمه وتأليفه وبلاغته جملة، وتفردا، واتساقا، وتلوينا، وتأصيلا، وانسيابا، غير جار في ذلك على اتساق الشعر وقوانينه الخاصة، أو على اتساق السجع في موالاة الكلام على وزن واحد، وانما هو أسلوب بذاته يقف وحده على ربوة الاعجاز البياني في شكله ومضمونه، وفي الحركة الجدلية المساوقة بين الشكل والمضمون، فلا يند تعبير في آية عن احتواء معناه الشمولي، ولا يضمر معنى في سياق داخل قصور تعبيري تعجز عن أدائه الكلمات....

يقول الباقلاني: وأنت تتبين في كل ما تصرف فيه من الأنواع على سمت شريف، ومركب منيف، يبهر اذا أخذ في النوع الربى، الأمر الشرعي، والكلام الالهي، الدال على أنه يصدر عن عزة الملكوت، وشرف الجبروت، وما لا يبلغ الوهم مواقعه: من حكمة وأحكام، واحتجاج وتقرير، واستشهاد وتقريع، واعذار وانذار، وتبشير وتحذير، وتنبيه وتلويح، واشباع وتصريح، واشارة ودلالة، وتعليم أخلاق زكية، وأسباب رضية، وسياسات جامعة، ومواعظ نافعة، وأوامر صادعة، وقصص مفيدة، وثناء على الله عز وجل بما هو أهله، وأوصاف كما يستحقه، وتحميد كما يستوجبه، وأخبار عن كائنات في التأتي صدقت، وأحاديث عن المؤتنف تحققت، ونواة زاجرة عن القبائح والفواحش، واباحة الطيبات، وتحريم المضار والخبائث، وحث على الجميل والاحسان.

تجد فيه الحكمة وفصل الخطاب، مجلوة عليك في منظر بهيج، ونظم أنيق، ومعرض رشيق، غير معتاص على الأسماع، ولا متلو على الافهام، ولا مستكره في اللفظ، ولا مستوحش في المنظر. غريب في الجنس، غير غريب في القبيل، ممتلىء ماء نضارة، ولطفا وغضارة، يسري في القلب كما يسري السرور، ويمر الى مواقعه كما يمر السهم، ويضيء كما يضيء الفجر، ويزخر كما يزخر البحر، طموح العباب، جموح على المتناول والمتناوب، كالروح في

البدن، والنور المستطير في الأفق، والغيث الشامل، والضياء الباهر «**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد**».

من توهم أن الشعر يلحظ شأوه بان ضلاله، ووضح جهله، اذ الشعر سمت قد تناولته الألسن، وتداولته القلوب، وانثالت عليه الهواجس، وضرب الشيطان فيه بسهمه، وأخذ منه بحظه. وما دونه من كلامهم فهو أدنى محلا، وأقرب مأخذا، وأسهل مطلبا)(١).

قد لا نجد في هذا النص سوى روح الانبهار باعجاز الأسلوب في القرآن الكريم، وقد يظن ظان أن هذه كانت سبيل الباقلاني الى اثبات الاعجاز البياني في هذا الأسلوب: مجرد التعبير عن حس الانبهار ثم لا شيء. ولكن الحقيقة من ذلك كله على النقيض، فقد قدم الباقلاني بين يدي هذا السياق المبهور بروعة الأسلوب القرآني قضايا نقدية، ومقولات فلسفية، وموازنات فنية، أدالت كلها من الأساليب البشرية للأسلوب الالهي، وقطعت بغلبة النص القرآني على غيره من كافة النصوص بما لا يقاس، وكانت النتيجة المنطقية بعد ذلك أن تأخذ الباقلاني روح الانبهار باعجاز البيان القرآني. الذي تحدى بلغة هي لغة القوم، وبتراكيب هي تراكيب العربية المستعملة، ومع ذلك فقد اصطنع لونا من الدماثة الأسلوبية المعجزة التي لا تميل الى تقعر مفتعل، ولا الى معاظلات فارغة، ولا الى تعقيد بليد، وانما هو السهل الممتنع الذي ينفذ الى اغراضه في رشاقة ووثاقة واندفاع وتساوق، يرق في مواطن الرحمة، ويجيش في مواطن القسوة، ويسترسل في مواطن القص، ويتوفز في مواطن الوعيد، ويفيض في مواطن الوعد، ويقتضب في مواطن الحكمة، ليشكل بذلك كله عالما ابداعيا متفردا يضع القرون أمام حقائق اعجازه في حصار المحدودية، ومحدودية الحصار!!

واذا كان الباقلاني وغير الباقلاني قد أشار الى قضية (النظم) وعلاقتها بالاعجاز الأسلوبي في القرآن الكريم، فان (عبد القاهر الجرجاني) وحده قد اتخذ من هذه القضية، قضية النظم، محورا لدراسته لظاهرة الاعجاز في الأسلوب القرآني بكامله.

وليس من السهل أن نتناول فكر الجرجاني في قضية النظم في مثل هذا اللمح الخاطف السريع، فقد وقف عليها الرجل كتابا من أروع ما كتب هو أو غيره في هذا الصدد، هو كتابه: (دلائل الاعجاز). ولم يكتف بذلك، فأشار اليها اشارات شارحة أو مكملة أو ممهدة في (أسرار البلاغة). و(الرسالة الشافية)، فجعل منها — فيما نعتقد — أول نظرية عربية نقدية متكاملة، يلح على تضويىء أبعادها وزواياها ذهن عربي مشرق كذهن عبد القاهر، في هذه المرحلة التي كان كل شيء فيها يوشك أن يميل الى الركاكة، والنثر والتسطيح.

ونظرية النظم كما شرحها عبدالقاهر في (دلائل الاعجاز) تعنينا هنا من وجهة كونها كانت تعبيرا علميا عن رأي صاحبها في اعجاز القرآن الكريم، وكون هذا الاعجاز ناهضا ليس على غير (النظم) أي (الأسلوب) القرآني، في مواجهة كل الأساليب والأشكال الفنية التي تفتقت عنها عبقرية العقل العربي في أروع ما قدم من ابداعات... وكان عبد القاهر موفقا في تهديه الى شرح نظريته في النظم من خلال منهج استقصائي جدلي وطيد، فقد تتبع بذهنه الثاقب، وحسه النقدي الرهيف، مختلف أساليب البيان العربي شعرا ونثرا، وحدد ظواهرها الفنية شكلا ومضمونا على نحو فاهم عميق، ثم استطرد الى طبائع التركيب من تقديم وتأخير، وتعريف وتنكير، وحذف واثبات، وفصل ووصل، وحقيقة ومجاز، وغير أولئك من حقائق التركيب في الجملة العربية والسياق البياني، ليصل من وراء ذلك كله الى أن اعجاز القرآن الكريم ناهض على أساس من طريقة النظم، أي طريقة التعبير بشكل أسلوبي معين يضع العلاقات وضعا معجزا لم يسبق اليه، ولن يلحق فيه، مع التسليم البدئي بأن مفردات الظاهرة الأسلوبية في القرآن الكريم من أحرف وكلمات هي هي مفردات الظاهرة الأسلوبية في كلام العرب، ولكن طريقة (النظم)، أي نوعية العلاقات النحوية التي تربط الكلمات والجمل، هي التي تفرق بشكل حاسم بين شكل وشكل، وبين أسلوب وأسلوب.

أي أن عبد القاهر بنى فلسفته الأسلوبية — استلهاما من وضعية الاعجاز الأسلوبي في القرآن — على أن حقائق البيان تكمن في طريقة استعمال اللغة وليس في اللغة نفسها، وهذا هو المعنى الحقيقي للأسلوب لأن الاعجاز لو كان كامنا في اللغة — كمفردات — لأمكن لكل من له المام بقاموسها ان يحتازه بلا تردد، وما هكذا يمكن أن يكون صواب الحكم في قضية التعبير، لأن أرتالا هائلة من حفظة اللغة متنا وتركيبا ظلوا على مستوى بشري في التعبير ربما لا يرتفع الى بعض ما ارتفع اليه غيرهم من الموهوبين قد لا يملكون مثل ما يملكون هم من كم لغوي، ولكنهم يمارسون عملية الابداع الفني.. فكيف بهم حيال القرآن الكريم وهو صورة الابداع الالهي في نسقه المعجز الذي تحدى به كل أعصار البشر والتاريخ؟ ان فلسفة الأسلوب — كما يراها عبد القاهر — تنهض على نوع من الغوص في شرايين المعنى وبحار التركيب، وليس على مجرد الحشد التراكمي للكلمات، أو الالحاق العشوائي للتراكيب.

يقول عبدالقاهر: (واعلم أن السبب في أن لم يقع النظر منهم موقعه، أنهم حين قالوا: تطلب المزية، ظنوا أن موضعها اللفظ بناء على أن النظم نظم الألفاظ، وانه يلحقها دون المعاني، وحين ظنوا أن موضعها ذلك واعتقدوه، وقفوا على اللفظ، وجعلوا لا يرمون بأوهامهم الى شيء سواه، الا انهم على ذاك لم يستطيعوا أن ينطقوا في تصحيح هذا الذي ظنوه بحرف، بل لم يتكلموا بشيء الا كان ذلك نقضا وابطالا لان يكون اللفظ، من حيث هو لفظ، موضعا للمزية، والا رأيتهم قد اعترفوا من حيث لم يدروا بأن ليس للمزية التي طلبوها موضع ومكان تكون فيه الا معاني النحو وأحكامه. وذلك انهم قالوا: ان الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلمات وانما تظهر بالضم على طريقة مخصوصة، فقولهم «بالضم» لا يصح ان يراد به النطق باللفظة بعد اللفظة من غير اتصال يكون بين معنييهما، لأنه لو جاز ان يكون لمجرد ضم اللفظ الى اللفظ تأثير في الفصاحة لكان ينبغي اذا قيل: «ضحك. خرج» أن يحدث من ضم «خرج» الى «ضحك» فصاحة، واذا بطل ذلك لم يبق الا أن يكون المعنى في ضم الكلمة الى الكلمة توخي معنى من معاني النحو فيما بينهما، وقولهم: على طريقة مخصوصة: يوجب ذلك أيضا، وذلك أنه لا يكون للطريقة — اذا أنت أردت مجرد اللفظ — معنى، وهذا سبيل كل ما قالوه اذا أنت تأملت، تراهم في الجميع قد دفعوا الى جعل المزية في معاني النحو وأحكامه من حيث لم يشعروا، ذلك لأنه أمر ضروري لا يمكن الخروج منه)(٢).

هذه لمحة مما شرح به عبدالقاهر نظريته في النظم، ولو أننا استطردنا وراء تفريعاته وشروحه ومنطقه الجدلي الذي يفترض القضايا ويورد الردود عليها، تأكيدا لاتجاهه، واضاءة لجوانب نظريته، لخرج بها هذا الى نوع التوسع ينبغي ان يوقف عليه جهد بكامله، عمرا بكامله، وما الى ذلك كله قد أردنا، فقد كان هدفنا منذ البدء أن نضع ملامح لرؤية قديمة ورؤية معاصرة في درس أسلوب القرآن وبيان اعجازه الخالد من حيث هو منحى تعبيري نسخ ما قبله وما بعده من كل الأساليب البيانية، ووقف بكل امتلائه يتحدى أضلاع الزمن المثلثة بماضيه وحاضره ومستقبله، أن تشارف ما استقر عليه من ذروة عالية، أو تدانى ما احتازه من قيم جمالية خالدة المنبع والقرار... وقد اعطانا الباقلاني وعبد القاهر صورة من الرؤية القديمة لفلسفة الظاهرة الأسلوبية في القرآن الكريم، بشكل يعكس طبيعة النظر النقدي في هذه المرحلة الباكرة الى خصائص النص وقيم الجمال في الأسلوب... وربما لو استطردنا الى تأمل (رؤية معاصرة) حيال هذه القضايا، لظهر لنا الى أي مدى يرفد السابق اللاحق، ويستدرك اللاحق على السابق، لتتكامل في النهاية نظرة أو نظرية في النقد، ويتأصل اتجاه في درس الخصائص الشكلية، والقيم الفنية، والظواهر الجمالية □

(١) الباقلاني: اعجاز القرآن ص ٣٠١ و ٣٠٢.

(٢) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الاعجاز ص ٣٦١ و٣٦٢.

جولة في أشبيلية:

عروس المدن الأندلسية

بقلم: ابراهيم أحمد الشنطي / هيئة التحرير

أحدث عنك والعبرات تهمي | وليس على الحديث لي اقتدار
وأذكر حسنك الماضي، خيالا، | وفي كبدي على "الأقصى" أوار
وأمضي في الخيال لعل فكري، | على مضض، يقر له قرار
وأسأل، والسؤال يظل غفلا، | أليس لكم، أيا أهلي، ذمار!؟

(2)

في استطلاع سابق تحدثنا عن قرطبة، عاصمة الأمويين في في الاندلس، واليوم نتحدث عن أشبيلية أجمل المدن الأندلسية أيام المسلمين، ومن أجملها في وقتنا الحاضر.

لم تدم اشبيلية في أيدي المسلمين بعد سقوط قرطبة، عام ١٢٣٦م، غير اثنتي عشرة سنة. فقد سقطت في ايدي القشتاليين في رمضان ٦٤٦هـ، نوفمبر ١٢٤٨م. وقد ورد ذكر اشبيلية في قصائد بعض الشعراء باسم حمص، ويقول بعض المؤرخين أن جندا من حمص الشام كانوا قد نزلوا بها عند الفتح. ومما جاء في «معجم البلدان» عنها أنها: «مدينة كبيرة عظيمة وليس بالأندلس اليوم أعظم منها، وتسمى حمص أيضا. وبها قاعدة ملك الأندلس وسريره، وبها كان بنو عباد، ولمقامهم بها خربت قرطبة... وأشبيلية قريبة من البحر يطل عليها جبل الشرف، وهو جبل كثير الشجر والزيتون وسائر الفواكه. ومما فاقت به على غيرها، من نواحي الأندلس، زراعة القطن،



علاقة مزركشة بباب الغفران عليها كتابات اسلامية منها: بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على محمد.

فانه يحمل منها الى جميع بلاد الأندلس والمغرب. وهي على شاطىء نهر عظيم قريب في العظم من دجلة أو النيل، تسير فيه المراكب المثقلة، يقال له الوادي الكبير».

والواقع أن اشبيلية لا تزال، الى اليوم، مدينة جميلة، فاحياؤها الجديدة ذات حدائق منسقة وشوارع واسعة، أما القديمة فذات شوارع ضيقة ولكنها نظيفة. ولدورها في الأحياء القديمة سور مرتفع يحجب ما داخلها عن الشارع، وفي هذه الأحياء القديمة توجد بقية من الآثار الاسلامية معظمها مساجد تم تحويلها الى كنائس، بعضها معمور وأكثرها خرب مهجور.

تبعد اشبيلية عن قرطبة حوالي ساعتين بالسيارة، والطريق بينهما لا بأس به، وأكثر ما كان مزروعا على جانبي الطريق، لدى زيارتنا لها في يونيو ١٩٨٢، نبات عباد الشمس. ومن تنظيم المزروعات يظهر أن القائم عليها شركات أو مؤسسات حيث أن الأراضي المزروعة واسعة جدا، كما أن نباتات كل منطقة من نوع واحد. ومنها، علاوة على عباد الشمس، القمح والشعير وسائر البقول كالحمص والعدس وما الى ذلك.

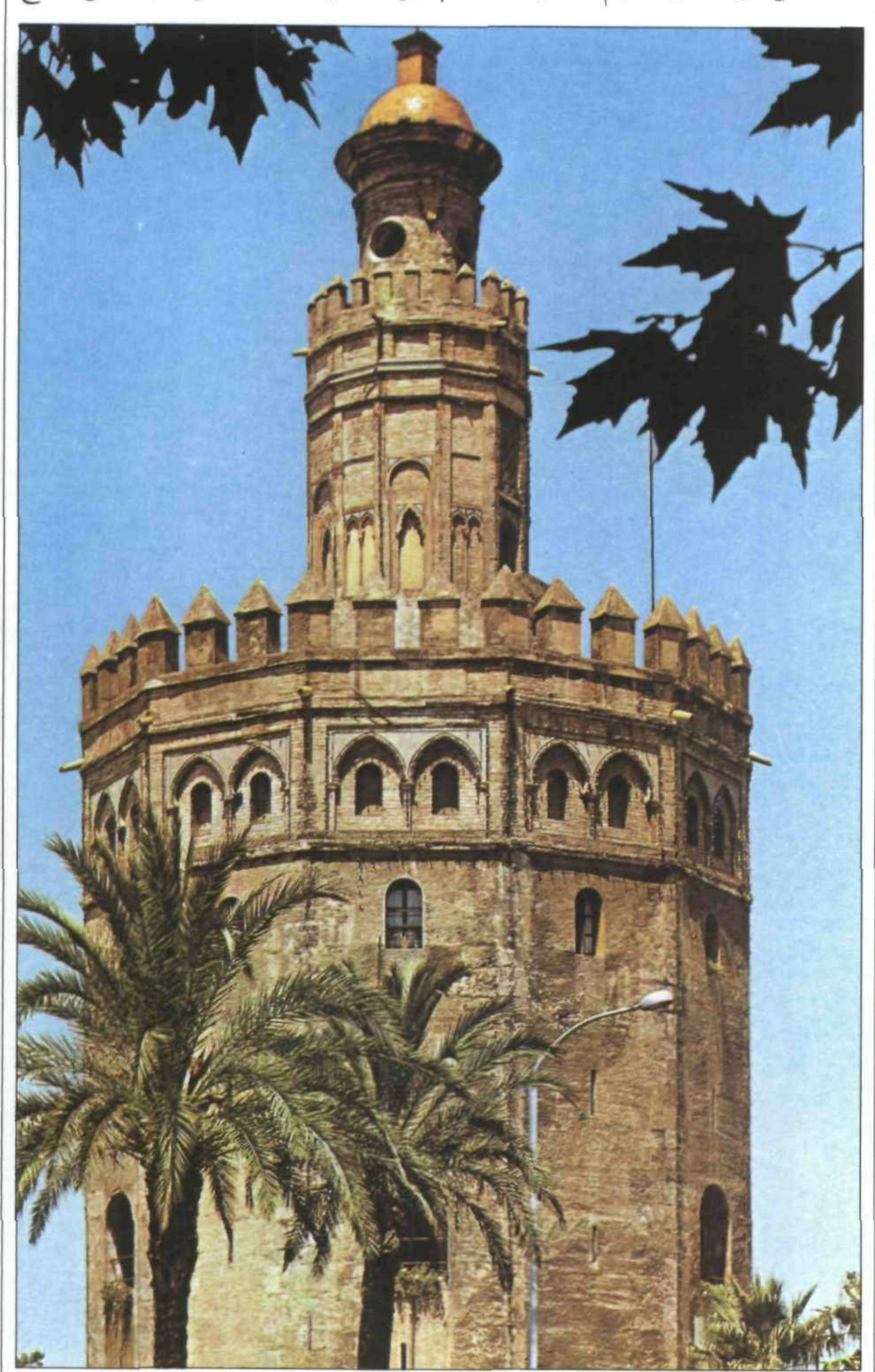
الآثار الاسلامية

تكاد تنحصر الآثار الاسلامية، في اشبيلية، بالقصر الملكي ومنارة المسجد الكبير فقط، حيث أن المسجد ذاته قد أزيل وأقيم على قواعده كنيسة كبيرة (كتدرائية) مليئة بالنقوش والرسوم النصرانية. غير أن أعمدة الكنيسة وعقودها ذات تصميم معماري أندلسي كمعظم المباني الضخمة التي كانت تقام في تلك الفترة. أما المنارة، أو المئذنة، فلا تزال قائمة على أصولها المعمارية الاسلامية، الا أنه زيد في أعلاها حيث أقيم برج أجراس وتمثال. ويبلغ ارتفاع المنارة حاليا نحو ٩٦ مترا كما تقول بعض المصادر، وهي مقامة من طبقات يعلو بعضها بعضا، وبين كل واحدة وأخرى ما يشبه الاستراحة. وقد تعرضت المنارة لزلزال شديد أصاب أعلاها بتلف بالغ عام ١٣٥٥م وسقطت الكرات الذهبية التي كانت تزينها (١).

وهناك مصدر تاريخي يذكر أن الزلزال وقع عام ١٥٦٨ وأن ارتفاع المنارة يبلغ ٢٥٠ قدما (٧٦ مترا). ويذكر المصدر ذاته أن ارتفاعها مع برج الأجراس يبلغ ٩٣ مترا (٢). وربما يكون سبب الاختلاف في هذه الأرقام هو اشتمال احدها على ارتفاع برج الأجراس أو التمثال من فوقه، دون الرقم الآخر.

وقد أقيم برج الأجراس والتمثال، المذكوران آنفا، بعد الزلزال واستغرق بناؤهما عشرة أعوام. وكان في التمثال جزء يتحرك مع الريح، وهذا سبب تسميتها «لاخيرالدا — La Giralda» أي لعبة الريح أو الدّوارة.

ويذكر لنا الأستاذ عبدالله عنان نقلا عن ابن صاحب الصلاة الذي شهد حفل افتتاح



برج الذهب — على ضفة نهر الوادي الكبير الذي يخترق اشبيلية.

(١) الآثار الأندلسية الباقية/عبدالله عنان /ص — ٥٦.

(٢) All Sevilla ص — ٦.

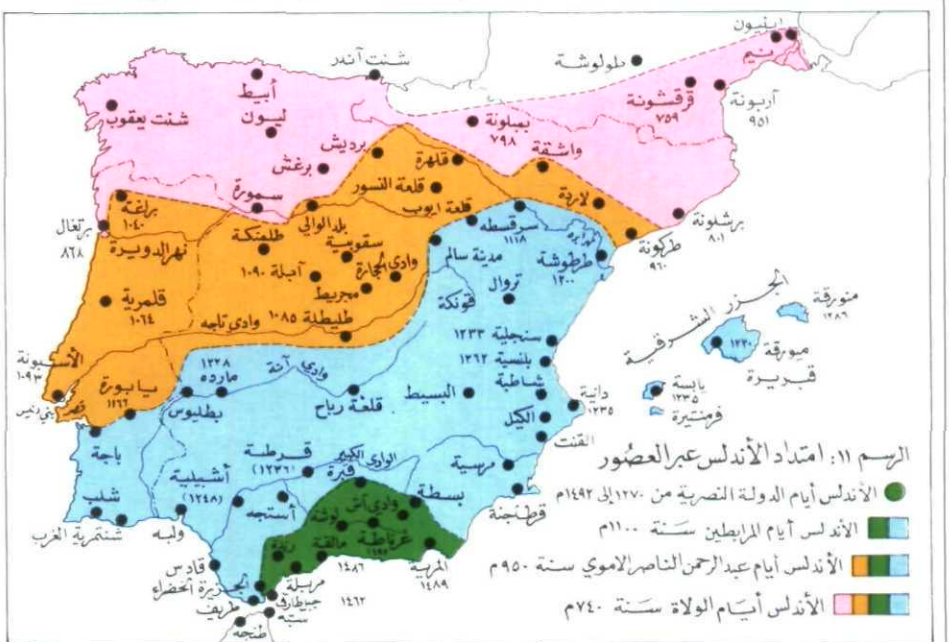
المنارة ورفع الكرات (التفافيح) الأربع الى أعلاها وذلك اثر عودة الخليفة المنصور منتصرا في معركة الأرك التي قادها ضد القشتاليين، قال: «فلما وصل أمير المؤمنين، وهزم الله له أذفونش الطاغية، أمر رضي الله عنه، في مدة اقامته باشبيلية بعمل التفافيح (الكرات) الغريبة الصنعة، العظيمة الرفعة، الكبيرة الجرم، المذهبة الرسم، الرفيعة الاسم والجسم، فرفعت في منازلها بمحضره... مركبة في عمود عظيم من الحديد... بارز طرفه الحامل لهذه الأشكال المسماة بالتفافيح الى الهواء، يكابد من زعازع الرياح، وصدمات الأمطار... وكان عدد الذهب الذي طليت به هذه التفافيح الثلاث الكبار والرابعة الصغرى، سبعة آلاف مثقال كبارا يعقوبية، عملها الصياغ بين يدي أمير المؤمنين وحضوره. ولما كملت سترت بالأغشية من شقاق الكتان لئلا ينالها الدنس من الأيدي والغبار، وحملت على العجل مجرورة حتى الصومعة... ووضعت في العمود، وحصلت فيه، وحصنت بمحضر أمير المؤمنين أبي يوسف المنصور رضي الله عنه، وبمحضر ابنه وولي عهده أبي عبدالله السعيد الناصر لدين الله، وجميع بنيه، وأشياخ الموحدين... وذلك في يوم الأربعاء عقب ربيع الآخر، بموافقة ٢٩ مارس العجمي، عام أربعة وتسعين وخمسماية (هجرية)، ثم كشف عن أغشيتها، فكادت تغشي الأبصار من تألقها بالذهب الخالص الابريز، وبشعاع رونقها».

وجاء في دراسة للدكتور عبدالعزيز سالم المصري عن العمارة الاسلامية في الأندلس وتطورها قوله عن منارة المنصور: «وظلت صومعة جامع أشبيلية بجمالها وسموقها ودقة زخارفها وتناسق بنياتها تثير اعجاب المسلمين والمسيحيين على السواء الى أن سقطت اشبيلية في يد فرناندو الثالث ملك قشتالة، فتحول المسجد الجامع الى كنيسة سانتاماريا، وتحولت المئذنة الى برج للنواقيس. ومع ذلك فقد ظلت المئذنة في نفس حالتها التي تركها عليها المسلمون دون أن تصاب بأي تغيير في نظام بنائها سوى أنها لم تعد تقوم بوظيفتها كمئذنة، وتحولت الى برج أجراس. ثم فقدت الى الأبد تفافيحها الأربع على أثر زلزال حدث سنة ١٣٥٥م. وفي سنة ١٤٩٤م تهاوى القسم الأعلى من الصومعة على أثر صاعقة. كما سقط جانب كبير منه على أثر زلزال حدث سنة ١٥٠٤م. وعندئذ قام المهندس هرتان رويث بتنفيذ مشروعه ببناء برج علوي سنة ١٥٥٨م فتم بعد عشر سنوات، ونصب في أعلاه تمثال من البرونز يرمز للمسيحية صنعه «برتولومي موريل» سنة ١٥٦٧م بحيث يدور مع الرياح ويبلغ ارتفاعه أربعة أمتار. ولذلك أطلق عليه اسم Giraldillo أو دوارة الرياح. ومنها جاءت تسمية المئذنة بالخيرالدا. ويبلغ ارتفاع الجزء الاسلامي منها ٦٩،٦٥ مترا، ويكفي لاظهار روعة هذا الجزء الاسلامي أن يلمس الزائر (لمبنى) الخيرالدا، بنفسه، عمارته الصاعدة... وزخارفه المحفورة في الآجر كالمخرمات والموزعة في تعادل واتزان مع رقة وبساطة تنطقان بالتفضيل...»(٣).

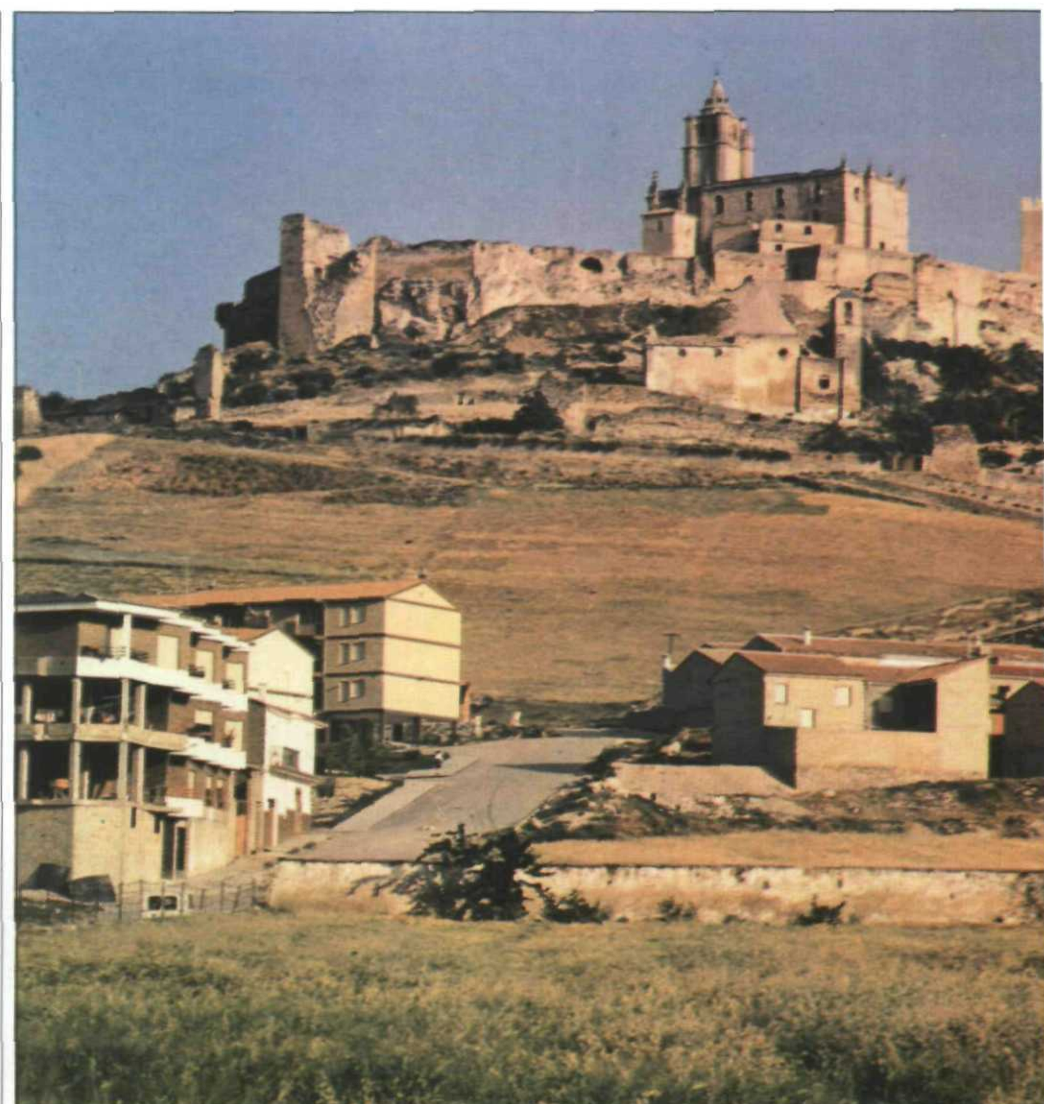
أما الكتدرائية التي أقيمت مكان المسجد فقد بدىء بانشائها عام ١٤٠١م. وهي تعتبر أكبر كنيسة في اسبانيا، وتأتي الثالثة في العالم بعد كنيستي روما ولندن. ويوجد في كنيسة اشبيلية قبر كرستوفر كولمبس — مكتشف أمريكا، وهي مليئة بالنقوش والزخارف والتماثيل المتنوعة.

احدى القلاع الاسلامية القديمة على رأس تل.

(٣) تاريخ رباط الفتح ص—٤١ و٤٢ عبدالله السويسي/ المغرب العربي.



خريطة تبين امتداد الاندلس ايام المسلمين على مختلف العصور، منقولة عن الجزء الأول من كتاب «المسلمون في أوروبا وأمريكا» للدكتور علي المنتصر الكتاني. بإذن منه.



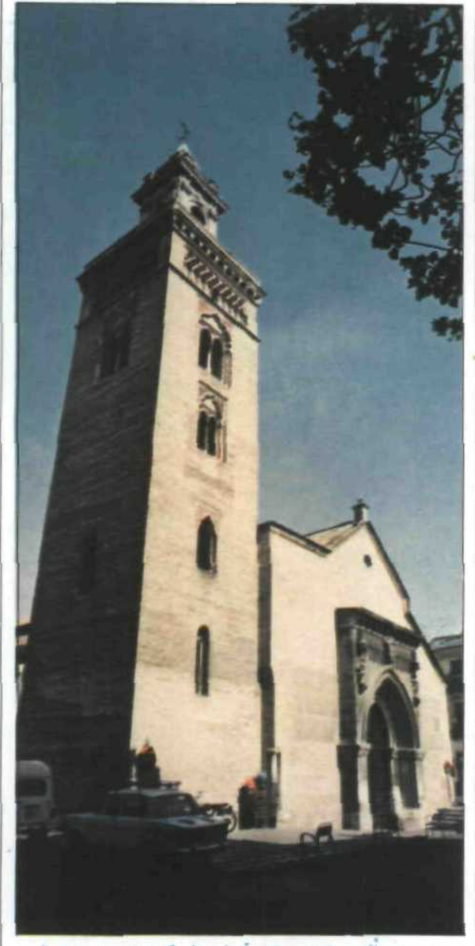
والى جانب الكنيسة يقوم صحن المسجد وبه نافورة مياه وعدد من أشجار البرتقال. وفي شمال الصحن باب حديدي ضخم عليه كتابات عربية ونقوش جميلة متنوعة ويدعونه «باب الغفران — Puerta del Perdon » وتصعد اليه من الخارج بضع درجات، ويبلغ عرضه خمسة أمتار وارتفاعه عشرة.

ويعود تاريخ اقامة مسجد اشبيلية القديم ومنارته الى أيام الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الموحدي. وقد بدىء بانشائها عام ٥٦٧هـ، ١١٧٢م. أيام كانت اشبيلية قاعدة للموحدين في الأندلس. وهو الذي أمر ببناء مثيلتها «منارة حسان» في مدينة رباط الفتح — عاصمة المغرب. وقد توفي أبو يعقوب يوسف قبل أن يكتمل انشاؤها فأتمها من بعده ولده أبو يوسف يعقوب المنصور.

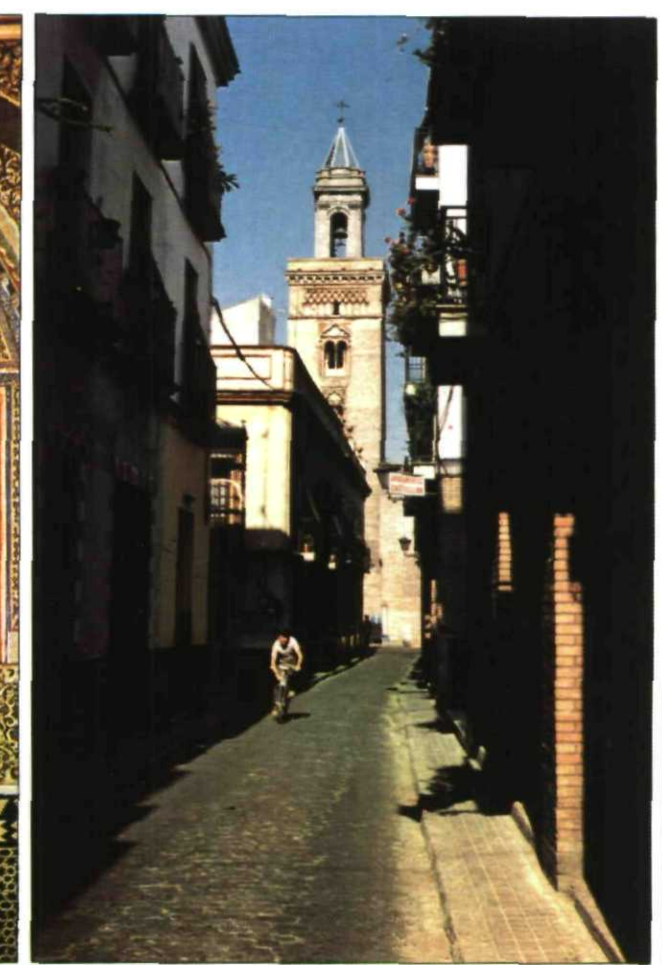
واذا ما دخل السائح الى قصر اشبيلية، وهو الأثر الاسلامي الثاني المهم الباقي فيها، فانه يشاهد روائع من الفن المعماري الاندلسي. فمدخل القصر، من الخارج، يبدو كجدار قلعة اسلامية فاذا ما اجتازه المرء الى الداخل وجد نفسه في ساحة واسعة تحيط بها عقود اسلامية ذات نقوش غاية في الابداع. ويتكون القصر من طابقين الأول اسلامي البناء — أي انه بني أيام الموحدين، أما الثاني فهو أندلسي الطراز، وقد بناه الأندلسيون المدجنون على النمط الاسلامي، بعد أن استولى عليها النصارى.

ويتكون القصر من عدة قاعات ذات أعمدة ونقوش وزخارف جميلة، في بعضها كتابات عربية. وتعتبر قاعة أو صالة السفراء — Salon de Embajadores وقاعة العذارى — Patio de las Doncellas من أجمل القاعات وأكثرها زخرفة، في عقودها وجدرانها وتيجان أعمدتها زخارف رائعة ملونة. وفوق عقود بهو السفراء رسوم لطيور بعضها باسط جناحيه، وعلى جانبي العقد العلوي من الخارج رسمان لطاووسين تحيط بهما زخرفات تشبه الدوالي. أما عقود قاعة العذارى فيقوم كل ركن من أركانها على زوج من الأعمدة الرخامية الصقيلة، ويتشكل العقد نفسه، من الداخل، من أنصاف دوائر يعلو بعضها بعضا مشكلة بذلك عقدا على مستوى رفيع من الفن المعماري الهندسي.

ويذكر المؤرخون أن قصر اشبيلية ربما أقيم على قواعد قصر المعتمد بن عباد في حوالي عام ٥٦٧هـ ١١٧٣م بأمر من الخليفة أبي يعقوب يوسف الموحدي الذي أمر أيضا ببناء المسجد الكبير في اشبيلية ومنارته المعروفة حاليا باسم (لاخيرالدا). وقد توفي أبو يعقوب قبل أن يتم البناء وأنجزه من بعده ولده يعقوب المنصور، كما ذكرنا سابقا.



مسجد أثري قديم وقد تحول الى كنيسة بعد سقوط الاندلس بيد القشتاليين.



الشوارع القديمة في اشبيلية ضيقة كالأزقة، ويبدو في نهاية الزقاق برج أجراس، وكان من قبل مئذنة يرتفع منها الأذان يوميا خمس مرات.

قاعة السفراء في قصر اشبيليه. وتعتبر من أغنى القاعات بالنقوش والزركشات المتنوعة.

أما الطابق العلوي من القصر فقد ابتناه ملوك الاسبان على غرار البناء الاندلسي كما زادوا في بعض جوانب القصر الأندلسي القديم، ومنهم بيدرو الأول وفرديناند وازابيلا وفليب الثالث والخامس وغيرهم.

ويلي القصر حدائق منسقة جميلة، معظم نباتاتها من أشجار الزينة المنسقة تنسيقا رائعا، تتخللها المياه الجارية والنوافير المتدفقة.

وعلى ضفة نهر الوادي الكبير، الى الجنوب الغربي من القصر، يقوم برج الذهب — Torre del Oro ، الذي يرتفع حوالي خمسة عشر مترا، وهو برج ذو اثني عشرة ضلعا، الجزء الأكبر السفلي منه مبني بالحجارة والأصغر العلوي مبني بالآجر. وقد بنى الاسبان في أعلاه برجا صغيرا مضلعا أيضا، يعلوه برج دائري الشكل فوقه قبة مموهة، وقد بني البرج أصلا عام ٦١٩هـ، ١٢٢١م كحصن للدفاع عن ممر مقام فوق النهر. ويقال بأنه كان متصلا بسلسلة قوية مع برج آخر يقابله على الضفة الأخرى للنهر. ويذكر المؤرخون أن حاكم اشبيلية، أبا العلاء الموحدي، هو الذي أمر بانشائه للدفاع عن القصر. أما سبب تسميته فتعود الى أنه ربما كانت بعض أجزاء منه مموهة بماء الذهب، وتعكس أشعة الشمس. ولا شك أن البرج قد شهد بطولات فائقة من المدافعين عنه والمهاجمين له أيام الحروب بين الموحدين والقشتاليين. ويعتبر هذا البرج، الى جانب الخيرالدا والقصر، أهم الآثار الاسلامية في اشبيلية، بالاضافة الى بعض الأسوار القديمة المتهدمة والمساجد العديدة التي حولها النصارى الى كنائس مهجور معظمها.

الجماعة الاسلامية في أشبيلية

وقد زرنا الجماعة الاسلامية في مقرهم باشبيلية وتجولنا مع بعضهم في الأحياء القديمة. ويبلغ عدد أفراد هذه الجماعة حوالي عشرين شخصاً منهم الاسباني والفرنسي وغيرهما ويعملون كموظفين أو مهنيين في المدينة. ويقوم مركز الجماعة في شقة متواضعة بوسط المدينة، فيها حجرة واسعة تتخذ مكانا للصلاة وغرفة أخرى لاقامة الزائرين القادمين من مناطق أخرى.

آثار في الطريق

في الطريق من قرطبة الى اشبيلية مررنا بمدينة «استيجة» ذات المنازل البيض والشوارع النظيفة، كما مررنا بمدينة «قرمونة» وهي مدينة أندلسية الطابع، وخاصة أحياؤها القديمة ذات الأزقة الضيقة. وعلى ربوة مرتفعة تقوم قلعتها الحصينة التي لعبت دورا كبيرا في الدفاع عنها عندما كانت تتعرض للغزاة من الاعداء. وفي قرمونة بعض الآثار القديمة مثل باب قرطبة، وباب اشبيلية وغير ذلك. وقد ورد ذكر قرمونة في معجم البلدان، بأنها «باكورة بالأندلس يتصل عملها بأعمال اشبيلية، غربي قرطبة وشرقي اشبيلية، وهي قديمة البنيان عصت على



بهو العذارى في قصر اشبيلية.

عبدالرحمن بن محمد الأموي فنزل عليها بجنوده حتى افتتحها وخربها ثم عادت الى بعض ما كانت عليه. وبينها وبين اشبيلية سبع فراسخ (حوالي ٣٠ كيلومترا)... وينسب اليها خطاب ابن مسلمة.... وكان بصيرا بالنحو واللغة، وقال ابن صارة الأندلسي شعرا في بعض ملوك العرب وكان قد فتح قرمونة:

أطَلَّ على قرمونةٍ مُتجلياً
معَ الصبحِ حتى قلتُ كان على وَعْدِ
فأرملها بالسيفِ ثم أعارَها
من النارِ أثوابَ الحِدادِ على النَّقْدِ
فيا حُسْنَ ذاك السيفِ في راحةِ العُلى
ويا برد تلك النارِ في كَبِدِ المَجْدِ!

الخليفة المنصور

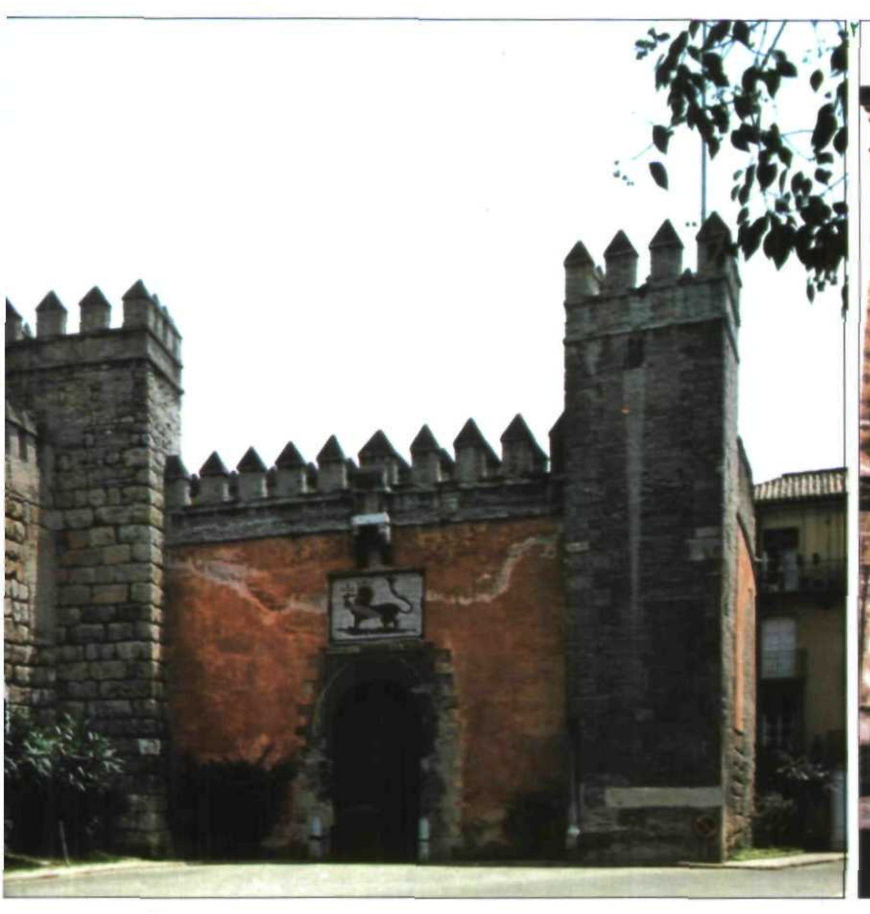
ولعل من تمام الحديث عن أشبيلية ان نتكلَّم عن الرجل الذي أنجز في عهده مسجد أشبيلية الكبير ومنارته التي اقترنت باسمه، ولا تزال على الرغم من القرون التي مرت على انشائها احدى روائع الهندسة الاسلامية في الأندلس، ذلك هو أبو يوسف يعقوب المنصور، الخليفة الموحدي، قائد معركة الأرك.

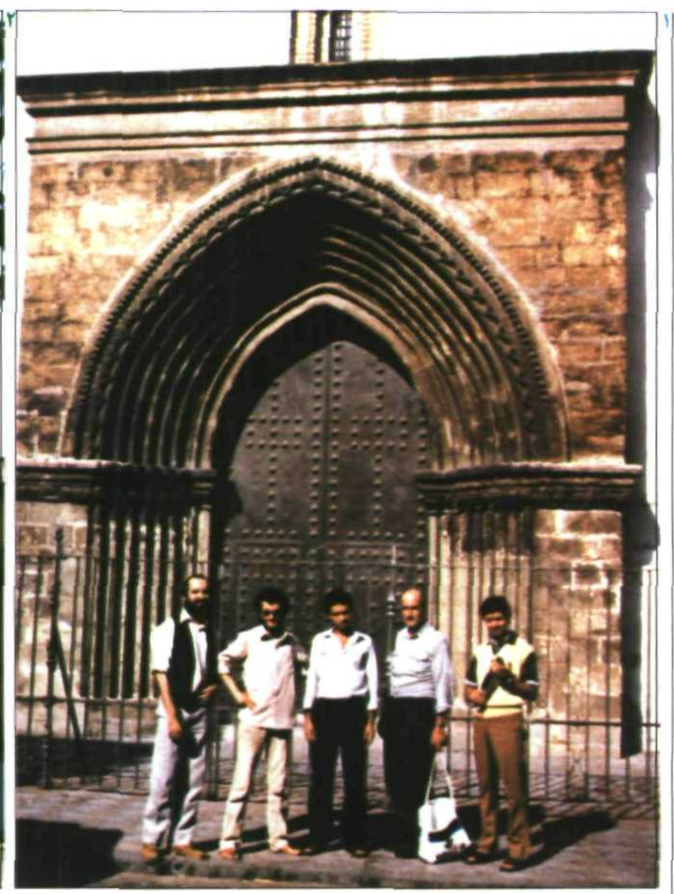
ولد المنصور في مراكش، وقيل في مدينة القصر الكريم عام ٥٥٥هـ، ١١٦٠م وتولى الحكم وعمره ٢٥ سنة، عقب اغتيال والده يوسف بن عبدالمؤمن في مدينة شنترين بالبرتغال عام ٥٨٠هـ— ١١٨٤م.

كان الخليفة المنصور شجاعا أمينا أديبا يكرم الأدباء والشعراء والعلماء ويجلس اليهم، ويستمع لمناقشاتهم. بويع بالخلافة في مدينة اشبيلية —مدار حديثنا— فكرس الكثير من جهده للدفاع عن حدود مملكته التي امتدت من مدريد في الاندلس شمالا الى نهر النيجر في افريقيا جنوبا ومن طرابلس الغرب شرقا الى المحيط الأطلسي غربا.

كانت أولى المعارك المهمة التي قادها ضد النصارى معركة «شَلَب» الواقعة في الزاوية الجنوبية الغربية للبرتغال. وكان ملك البرتغال قد استعان يومها باسطول انجليزي واستولوا على مدينة شلب بعد أن حاصروها ثلاثة أشهر. فاستعد الخليفة المنصور للأمر، وكان في مراكش، واجتاز مضيق جبل طارق بجيش لجب، فذهب أولا الى قرطبة ثم الى اشبيلية ثم الى شلب واسترجعها من أيدي النصارى في

نافورة في صحن مسجد اشبيلية، الذي أزيل كليا وأقيم مكانه كتدرائية ضخمة، والباب المقابل بناه المسلمون ولا يزال على حاله ويدعونه اليوم «باب الغفران».





جمادى الثانية ٥٨٧هـ يوليه ١١٩١م. ثم أقام في اشبيلية فترة وعاد بعدها الى المغرب.

وأثناء اقامة المنصور في الرباط بلغه أن القشتاليين أخذوا يهاجمون ضواحي اشبيلية، وأن غاراتهم وصلت الى الجزيرة الخضراء، في الطرف الجنوبي للأندلس بمواجهة جبل طارق. ويذكر الرواة أن ملك قشتالة أرسل الى المنصور رسالة يتهجم عليه فيها ويتحداه ويزهو بنفسه ويفتخر. ولما وصل كتاب ملك قشتالة (الى الخليفة واطلع عليه،مزقه وكتب على ظهر قطعة منه: «ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون» ثم كتب: الجواب ما ترى لا ما تسمع)(٤).

ويقول الرواة أن نسخا من الكتاب قد وزعت على سائر أنحاء المملكة لتبعث الحماس والنخوة، فاجتمع للمنصور جيش كبير عبر به البحر من المغرب الى الأندلس «فكان أول من عبره قبائل العرب، ثم زناته، ثم المصامدة، ثم غمارة، فالجيوش المتطوعة ثم الموحدون»(٤).

ولما وصلت الأخبار الى الفونس الثامن — ملك قشتالة، جمع سائر قواد جيشه في مدينة كريون التي تبعد سبعة كيلومترات عن حصن الارك الواقع على مسافة أحد عشر كيلومترا من قلعة رباح، وأخذ يستعد لمقابلة الخليفة المنصور في ذلك الموقع. ووصل الخليفة في أوائل شعبان ونزل في موقع مشرف على المنطقة وجمع قادة الجيش وشيوخ القبائل لاستشارتهم، وكان في مقدمتهم القائد أبو عبدالله بن صناديد وابن أبي حفص الهنتاتي، واستقر الرأي على أن يبدأوا المعركة في صبيحة يوم الأربعاء التاسع من شعبان ٥٩١هـ، ١٩ يوليو ١١٩٥م(٥). وركز القشتاليون هجومهم على ميسرة الموحدين فاخترقوا صفوفهم، ثم مالوا على الوسط في هجوم خاطف فاستشهد قائد جيوش الموحدين ابن أبي حفص الهنتاتي وكانت الشمس قد مالت الى الزوال، وهنا دخل المنصور المعركة بنفسه وأخذ يشجع الجند ويشد من أزرهم فصمدوا، ثم هجموا على القشتاليين هجمة رجل واحد واشتدوا عليهم، فتراجع القشتاليون واختلت صفوفهم فازداد حماس الموحدين وحملوا عليهم حملة قوية ميممين نحو قائدهم الفونس الذي لم يجد له الا الفرار سبيلا، فهرب مع عدد من أصحابه طالبين النجاة، وكتب الله النصر للمسلمين وكانت الشمس تميل الى الغروب، فأقاموا الصلاة وشكروا الله على مؤازرته ونصره. وفي الأيام التالية طارد الموحدون القشتاليين حتى طليطلة ومدريد.

بعد نحو سنتين عاود المنصور هجومه على القشتاليين في طليطلة ومدريد ثم عاد الى قرطبة يدير شؤونها ويصرف أمورها. وأثناء اقامته بها، عام ٥٩٣هـ، وقعت محنة الفيلسوف أبي الوليد ابن رشد، الذي اشتهر بالطب والفقه والفلسفة وألف فيها نحو ٧٠ كتابا، وتولى القضاء في اشبيلية وقرطبة، فاحرقت كتبه ونفي الى بلدة قريبة من قرطبة كان معظم سكانها من اليهود. وبعد ثلاثة أعوام أطلق سراحه، لكنه ما لبث أن توفي في صفر ٥٩٥هـ ديسمبر ١١٩٨م. وكان في الخامسة والسبعين من العمر.

(٤) تاريخ رباط الفتح ص٢٦ و٢٧.

(٥) يذكر الاستاذ عبدالله عنان في كتابه (الآثار الاندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال ص—٥١ السطر الأخير أن المعركة وقعت سنة ٥٩٣هـ (١١٩٥م). ويذكر الاستاذ عبدالله السويسي في كتابه رباط الفتح ص٢٨ سطر—١١ أنها نشبت في ٩ شعبان ٥٩١هـ، يوليه ١١٩٤م. ويذكر المصدر ذاته في ص١٤ سطر ١٣ أنها وقعت في تاسع شعبان ٥٩١هـ، ١٩ يوليو ١١٩٥م.

٣



١ — أمام باب أحد المساجد، سابقا، وقف كاتب المقال — الثاني من اليمين — والسيد عبدالهادي كامينو — رئيس الجماعة الاسلامية في اشبيلية — الاول من اليسار، وثلاثة آخرون من الجماعة الاسلامية.

٢ — مدخل قصر اشبيلية، ولا يزال سوره الخارجي كما تركه المسلمون.

٣ — ظل الجزء الذي بناه المسلمون في منارة المنصور كما هو، ولما احتل النصارى المدينة، زادوا في البناء عدة أمتار، ووضعوا فيه النواقيس.

تصوير: شيخ أمين

خلال ذلك العام واصل على بن اسحاق، المعروف بابن غانية، هجماته على قواعد الموحدين في شمال افريقيا، كما اتصل القشتاليون بالخليفة طالبين عقد هدنة معه فوافق المنصور على ذلك، ثم عبر البحر الى المغرب واستقر في مدينة مراكش.

ثم انه أصيب بالمرض فأخذ البيعة لابنه الملقب بالناصر ٥٩٥هـ، ١١٩٩م. غير أن المرض اشتد عليه ولم يستطع مقاومته وحان الأجل المحتوم فلبى نداء ربه، في تلك السنة، مختتما بذلك عهدا حافلا بالبطولات والانجازات، ولما يتجاوز الاربعين من العمر □



كم كنت آمل أن يدوم بقائي
وأقيم ضيفا في رحاب «محمد»
وأعيش في كنف النبي وآله
لكنما كتب الفراق ولم يعد

قد جئت مثوى المصطفى لأحقق الـ
وقصدت «يثرب» يا نبي مولها
والقلب يقفز لهفة من أضلعي
ونشقت ريحك يا رسول بجوها
حتى اذا خفق الفؤاد من الهوى
ومشيت في وجل على الأرض التي
بل كدت أخطو في الهواء تأدبا
من لم يُجد كرّ الزمان بمثلهم
وذكرت صحبك حين كنت تؤمهم
من أخلصوا لله في دنيا همو
هم خير من مس البطاح نعالهم
وذكرت وجدك بين أغوار الفلا
كي تختلي بالـلـه أو تخفى على
اذ قلت للصدّيق لا تخشى العدا

بأبي وأمي يا رسول وأنت.. ان
حرّمت وأد البنت دون جناية
وجعلت توصى باليتيم تعطفا
وأخذت من مال الغني زكاته
خلق هو الاسلام أنت فقيهه

شعر: د. عزت شندي موسى / القاهرة

قرب الرسول مدى ليوم عفائي
والضيف محسوب على الكرماء
وأموت عن كثب من الرفقاء
غير اشتعال فجيعتي وبلائي

حلم الجميل وكي يتم هنائي
أرنو لنورك فوق كل بناء
لحبيبه مستنكرا ابطائي
عطرا يفوح بنشرة فيحاء
لاحت مجالي القبة الخضراء
طهرت بلمس نعالك العصماء
كي لا أمس مسالك الخلفاء
أو يذكر التاريخ من نظراء
مثل البدور تدور حول ذكاء
وسَعَوا الى الأخرى من الشهداء
وأبر من ساروا على البطحاء
في غار «ثور» أو بغار «حراء»
من أسرفوا في الكيد والبغضاء
الله ناصرنا على الأعداء

يقسُ الورى أحنى من الآباء
فرحمتها يا أرحم الرحماء
لتقيله من ذلة التعساء
ليكون حق الله للفقراء
ولنعم ما شرّعت للفقهاء

صابرت اذ أعليت حكم الله في ... شتى البقاع وزدت في الاعلاء
ولكم صبرت على الأذى من جاحد ... ولكم لقيت العسف من سفهاء
ولكم سعيت على الرمال مجاهدا ... وقد اكتوت قدماك في البيداء
وطويت آفاق القفار مبشرا ... ما بين قيظ محرق وعداء
وتركت أهلك والديار مهاجرا ... لتبين دينا كان طي خفاء
وصمدت بين تعصب وتنطع ... ووقفت بين الجهل والجهلاء

وظفرت بالنصر المبين فلم تكن ... ممن مشوا بالزهو والخيلاء
بل لذت بالحلم الجميل وحكمة ال ... بطل الجليل ورحمة العظماء
وبسطت كفك للعدو مصافحا ... وشهدت أنهم من الطلقاء
فنشرت دينك غازيا ومسالما ... ما بين غصن مزهر ودماء
حتى اذا اكملت دينك في الورى ... أتممت نعمة مغدق النعماء

نفسي فداؤك يا رسول ولوبها ... أرخصت في حب الرسول فدائي
اني لأعجب كيف لم يؤمن بكم ... كفار مكة دون طول عناء
ولقد رأوا من أمركم ما قد رأوا ... حقا مبينا دون أي مراء
والدين يصبح شاكيا من ماجن ... ويبيت محزونا من الخلعاء
وغدا الألى يتمسكون بدينهم ... يمشون بين الناس كالغرباء
ماذا اذن لو كنت بين زمانكم ... ماذا اذن لو كنت في النصراء؟
ونظرت نور الحق فوق جبينكم ... متلألئا كالفرقد الوضّاء
ولزمتكم في رَوْحكم وغدوكم ... فصحبت أكرم رائح غدّاء
وُبهرت من حلو الحديث وصقله ... وأخذت من طهر بدا ونقاء
وحضرت مولد بعثة نبوية ... وشهدت فجر السيرة الغراء
اني ظفرت بما رجوت وليس لي ... ان عشت بعد اليوم أي رجاء
أنت الحبيب وأنت كل مآربي ... ان كنتُ ميتا أو مع الأحياء
سأعيش في أمل اللقاء وسوفها ... أهفو الى رجعى لكم ولقاء
انت الشفيع فجد بخير شفاعة ... أنجو بها من شقوة وبلاء

أخبار الكتب

* صدر معجمان جديدان أولهما «معجم انجليزي / عربي للمحاسبة والمالية مع مسرد عربي / انجليزي ، وهو من تأليف الأستاذ أ . عابدين الأستاذ بكلية الادارة الصناعية بجامعة البترول والمعادن بالظهران وقد نشرته مكتبة لبنان بالاشتراك مع دار جون وايلي الأمريكية » ، وثانيهما « معجم ألفاظ الحضارة الحديثة ومصطلحات الفنون » وهو باللغات العربية والانجليزية والافرنسية وقد صدر عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة بمقدمة للاستاذ بدر الدين أبو غازي . كما نشرت دار المعارف قاموس « المصباح المنير » للفيومي بتحقيق الاستاذ عبد العظيم الشناوي . وأصدر مجمع القاهرة الجزء الثاني والعشرين من « مجموعة المصطلحات العلمية والفنية » ، وفيه مصطلحات في النفط والفيزيقا والهيدرولوجيا والقانون التجاري والكيمياء والصيدلة والرياضيات والتربية والحضارة الحديثة وفلسفة التاريخ وعلم الحيوان والسينما والمسرح ، وهي المصطلحات التي أجازها المجمع بعد تمحيصها في لجان الخبراء وفي مؤتمر المجمع .

وقدم للمجموعة العلامة الكبير الدكتور ابراهيم بيومي مدكور — رئيس المجمع .

* من الكتب التي تتناول مسائل الدين صدر ما يلي : « الاعجاز والقراءات » للاستاذ فتحي عبد القادر فريد ونشر دار العلوم بالرياض ، و « الايمان والمعرفة والفلسفة » للعلامة الراحل الدكتور محمد حسين هيكل باشا ونشر دار المعارف و « مهذب السيرة النبوية » للاستاذ ابراهيم الأبياري ونشر دار المعارف أيضاً .

* ومن الدراسات العربية الاسلامية صدر كتابان هما « الدراسات العربية والاسلامية في أوربا » للدكتور ميشال جحا ونشر معهد الانماء العربي ، ببيروت ، و « الرؤية الحضارية للتاريخ عند العرب والمسلمين » للدكتور قاسم عبده قاسم ونشر دار المعارف .

* أصدر الدكتور محمد عابد الجابري كتاباً عن العلامة المؤرخ عبد الرحمن ابن خلدون عنوانه « في فكر ابن خلدون العصبة والدولة » وقد نشرته دار الطليعة في بيروت .

وفي الوقت عينه حقق الدكتور عبد الحميد حاجيات كتاب « بغية الرواد في ذكر الملوك من بني الواد » لأبي زكريا يحيى بن خلدون (شقيق عبد الرحمن) ، وقد صدر جزؤه الأول عن المكتبة الوطنية بالجزائر .

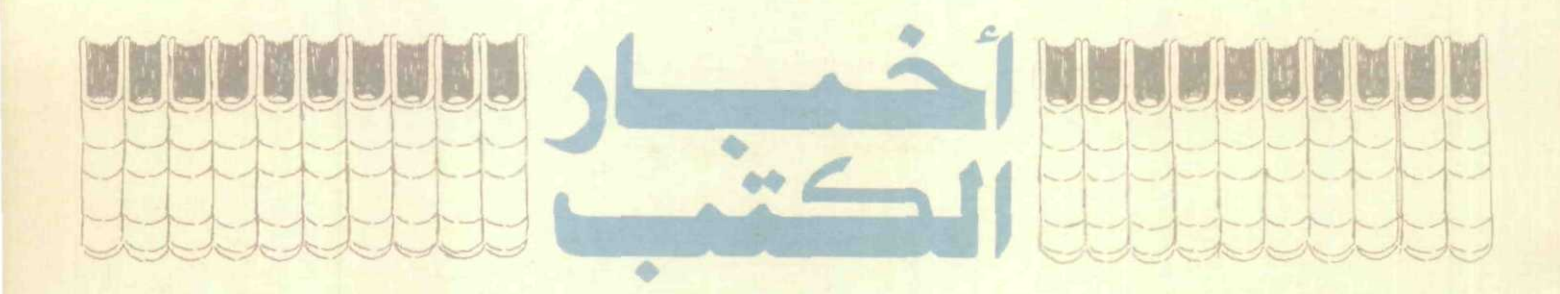
* فرغ مجمع اللغة العربية بالقاهرة من تحقيق كتابين من كتب اللغة ، فأصدر أخيراً الجزء الرابع والأخير من « كتاب الأفعال » لأبي سعيد بن محمد المعافري السرقسطي وقد حققه وصنف فهارسه الدكتور حسين محمد محمد شرف وراجعه الدكتور محمد مهدي علام ، كما أصدر الأجزاء الرابع والخامس والسادس من كتاب « التكملة والذيل والصلة لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية » للحسن محمد بن الحسن الصغاني ، وقد شارك في تحقيقها الأستاذان عبد العليم الطحاوي وابراهيم الأبياري والأستاذ الراحل محمد أبو الفضل ابراهيم ، وشارك في مراجعتها الاستاذان عبد الحميد حسن ومحمد خلف الله احمد والدكتور محمد مهدي علام .

* ومما صدر من كتب التراث في العراق « أدب القاضي » لأبي الحسن البصري الماوردي ، وهو جزءان من تحقيق الأستاذ محي هلال السرحان ونشر رياسة ديوان الأوقاف بالعراق ، و « زبدة الآثار الجلية في الحوادث الأرضية » وقد ألفه ياسين بن خيرالله العمري واختار زبدته الدكتور داود الجلبي وحققه الاستاذ عماد عبد السلام رؤوف ونشره المجمع العلمي العراقي .

* وصدر عن المكتبة الوطنية بالجزائر كتاب « سير الأئمة وأخبارهم » لأبي زكريا يحيى أبي بكر ، وقد حققه الاستاذ اسماعيل العربي .

* كما صدر عن مجمع دمشق « القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية » لابن طولون ، وهو في جزءين من تحقيق الأستاذ محمد أحمد دهمان .

* صدر للأديب التونسي الأستاذ فتحي



التريكي « أفلاطون والديالكتيكية » وهو دراسة جامعية رصينة .

* الأديب السوري الكبير الراحل الأستاذ فؤاد الشايب ستصدر سيرته وآثاره تباعاً عن وزارة الثقافة السورية باشراف الأديب الاستاذ عيسى فتوح .

* الكتاب الشهير « الشعر العربي في المهجر » للأديب محمد عبد الغني حسن تصدر له طبعة رابعة كبيرة ، بعد أن استوفى تحقيق مادته وأضاف اليه تراجم عشرة من الشعراء المهجريين خلت منها طبعات الكتاب السابقة . ويصدر الكتاب عن دار الخانجي .

* صدر للدكتور هاشم ياغي كتاب كبير في جزءين عنوانه « النقد الأدبي الحديث في لبنان » وقد نشرته دار المعارف .

* صدر للشاعرة جليلة رضا ديوان جديد عنوانه « العودة الى المحارة » عن مكتبة مصر . كما صدر للشاعرة مؤمنة العوف (التي عرفت باسم سلافة العامري) ديوان عنوانه « ترنيمة للحرب والبراءة » وقد نشر في بيروت .

* ومن الدواوين الجديدة « الشلال » للشاعر المهجري توفيق بربر ونشر مطابع مؤسسة أيف في بيروت ، و« المزاهر » للشاعر العراقي الاستاذ نعمان ماهر الكنعاني ونشر دار الرشيد في بغداد ، و« بوح القوافي » للشاعر السوري نصر علي سعيد بمقدمة للاستاذ أنور الجندي ونشر مطبعة النوري في دمشق .

صدر للدكتور عبد الحميد القط (وهو شقيق الدكتور عبد القادر القط) كتاب عن الأدب في مصر عنوانه « دراسات في الأدب المصري المعاصر » وصدر في نفس الوقت كتاب عن أدب المغرب عنوانه « في الأدب المغربي المعاصر » ألفه الدكتوران عبد الحميد يونس وفتحي حسن المصري ونشرتهما دار المعارف .

* بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاة الشاعرين الكبيرين احمد شوقي وحافظ ابراهيم ، والمهرجان الذي أقيم تخليداً لذكراهما ، صدر طابع بريد يحمل صورة الشاعرين ، كما تصدر عملات تذكارية فضية ومعدنية في هذه المناسبة .

* من كتب اللغة التي صدرت أخيراً كتاب « في أصول اللغة » وهو جزءان يضمان القرارات التي اتخذها مجمع القاهرة في قواعد اللغة وأصولها . وقد أشرف على الجزء الأول الأستاذان محمد خلف الله احمد ومحمد شوقي أمين ، وعلى الثاني الاستاذان شوقي أمين ومصطفى حجازي .

* كما صدر عن المجمع كتاب ثالث عنوانه « الألفاظ والأساليب » شارك في اعداد مادته الأستاذان شوقي أمين ومصطفى حجازي .

* ونشرت دار المعارف طائفة من الدراسات التي تدور حول اللغة ، منها « الاعراب والرواة » للدكتور عبد الحميد الشلقاني ، و « علم الفصاحة العربية » للدكتور محمد علي رزق الخفاجي ، و« في علمي العروض والقافية » للدكتور أمين علي السيد ، و « الخصومات البلاغية في صنعة أبي تمام » للدكتور عبد الفتاح لاشين .

* مجموعة من الدراسات الأدبية صدرت للأديب التونسي الأستاذ رشيد الذاودي في كتاب عنوانه « اشارات أدبية » .

* أحدث رواية صدرت للأديبة الشاعرة جميلة العلايلي عنوانها « بين أبوين » ، وهي من القصص الأخلاقي الذي أثر عن الأديبة العلايلي في جميع كتاباتها وقد نشرها المجلس الأعلى للثقافة .

* أصدر الأديب الشاعر الدكتور محمد رجب البيومي مسرحية شعرية تاريخية عنوانها « فوق الأبوة » وهي بدورها من الروائي الأخلاقي . وتصدر قريباً للشاعر الدكتور أنس داود مسرحية شعرية عنوانها « حكاية الأميرة التي عشقت الشعر » .

* في أدب التراجم والسير صدر كتابان هما « بشار بن برد » للدكتور محمد طه الحاجري و« العلامة اللغوي ابن فارس الرازي » للدكتور محمد مصطفى رضوان ، ونشرت الكتابين دار المعارف □

ابن مشرف شاعر الامام فيصل

بقلم : الاستاذ عبدالله أحمد شباط / الدمام

ضيفنا اليوم شيخ جليل.. وعالم كبير.. تضلع في العلوم الدينية حتى وصل الى مرتبة القضاة، هو الشيخ أحمد بن علي بن حسين بن مشرف الوهيبي التميمي.. سلفي العقيدة.

ولد بالاحساء وعاش بها.. ثم اتصل بالامام فيصل بن تركي ولازمه مدة طويلة وله فيه مدائح كثيرة.. ثم انه عين قاضيا بالاحساء في أواخر أيام الامام فيصل أول أيام الامام عبدالله بن فيصل الى أن توفي سنة ١٢٨٥هـ بالمبرز.

من أساتذته الذين تلقى عليهم العلم الشيخ حسين بن أبي بكر بن غنام. له ديوان مطبوع يشتمل على العديد من القصائد.. منها منظومة اسمها «جوهرة التوحيد».. ومنظومة أخرى لعقيدة ابن أبي زيد القيرواني.. ومنظومة سماها «المرمية في الرد على المعطلة والجهمية».. ومجموعة قصائد في الاخوانيات والمدائح.. كما أنه له منظومة كبيرة تشتمل على آداب السلوك اسمها «نغمة الأغاني».

هذا شيخ استهوته دعوة التوحيد التي قادها الامام محمد بن عبدالوهاب فأخلص لها وكرس حياته من أجلها.. لذلك تجد أن كل شعره حتى في المدح أو النسيب لا يخرج عن هذا النطاق.

ومن ذلك الشعر قصيدة في مدح الرسول، صلى الله عليه وسلم، يقول فيها:

بات ساهي الطرف والشوق يلح
ولبحر الدمع في عينيه سفح
ليته أطفأ نيران الهوى
حين أضنى مهجتي منهن لفح
عاذلي بالله كن لي عاذرا
ليس من يشرب كأس الحب يصحو
واذا لم تدر ما سرّ امرىء
فانظر الحال ففي الأحوال شرح

حب طه المصطفى دين لنا
فلقلبي في بحور الشعر سبح
أحمد الهادي الى سبل الهدى
كم بدا منه لأهل الأرض نصح
هاشمي.. قرشي.. طاهر
حسن الأخلاق زاكي الأصل.. سمح
جاء بالدين الحنيفي وقد
طبق الأرض من الاشراك جنح
فانجلى الشرك وولى مدبرا
وعلت للدين آكام وصرح
وبه الرحمن قد أنقذنا
من لظى منها لأهل الكفر لفح
هو خير الخلق طرا وبه
للنبيين جرى ختم وفتح

وشعر شيخنا ابن مشرف يعتبر مصدرا من مصادر تاريخ الفترة من ١٢٥٠هـ الى سنة ١٢٨٠هـ بالنسبة للاحساء ونجد.. فهو يسجل الأحداث تسجيلا دقيقا في قصائد التهاني أو المدح أو الرثاء.. فنجده يسجل حادثة انتصار الامام عبدالله بن فيصل على البدو عندما يهنئه بالانتصار فيقول:

لقد سرنا ما جاءنا من بشارة
فزالت هموم النفس وانشرح الصدر
لدن قيل عبدالله أقبل عاديا
يقود أسودا في الحروب لها زأر
رئيس به سيما الخلافة قد بدت
وفي وجهه الاقبال والعز والنصر

ثم يأخذ في شرح الدوافع لهذا الغزو:

أساءوا جميعا في الامام ظنونهم
وقالوا ضعيف الجند في عزمه حصر
نـغير على بـلـدانـه ونخيفها
ليصرفنا الوالي وينمو لنا الوفر
أمـاني غـرور كـالسراب بـقـيـعـة
يرى في الفلا وقت الضحى انه بحر
كذبتم فهجر دونها الخيل والقنا
ومن دونها ضرب القواصر والأسر

وفي وقعة أخرى مع القبائل ينتصر الامام مرة أخرى سنة ١٢٧٧هـ فيقول ابن مشرف:

لك الحمد مولانا على نصر حزبنا
على كل باغ في البلاد وفاجر
ومن بعد حمد الله جل ثناؤه
على نعم لم يحصها عد حاصر
تقول لأعداء بنا قد تربصوا
علـيـكـم أدير دائرات الدوائر

ويصف أحوال البوادي عندما يفدون الى الاحساء وكيف كانوا ينعمون بخيراتها لكنهم لا يقنعون بما يبذل لهم من الاكرام.. ويعتبرون ذلك خوفا ومذلة:

اذا وردوا الاحسـاء فـازوا بخيرهـا
وفي برها نبت الرياض النواضر
وكم أحسن الوالي اليهم ببذله
وبالصفح عنهم في السنين الغوابر
وكـم أسدى لهم بـعـد نـعـمـه
ولـكـنـه أسـدى الى غير شـاكـر

ويصادف انتصار الامام في هذه الموقعة عيد الفطر المبارك فتكون التهنئة مزدوجة . يقول ابن مشرف:

فهنئت بالعيدين.. بالفتح أولا
وعيد كمال الصوم احدى الشعائر
وشكـر الأيـادي بـالـتواصي بالتقى
بترك الـنـواهي وامـتـثـال الأوامر
صبرت فنلت النصر بالصبر والمنى
وما انقادت الآمال الا لصابر

وعندما تصالح الامام فيصل مع أهل عنيزة يبتهج الشاعر بحقن دماء المسلمين ويترجم ابتهاجه الى كلمات يبعث بها للامام فيقول في ذلك:

واذا ذكرت بمدحة ذا شيمة
فـامـامـنـا ممن تـفـيـأ ظـلـهـا
أعني أخا المجد المؤثل فيصلا
نفسي تتوق الى حماه تولها
كفّاه في بذل الندى كسحابة
جادت بوابلـهـا فسابق طلها

ما زال يسمو للعلا حتى حوى
دق المكارم في الفخار وجلها
بشرى المدائح بالنفائس رغبة
حتى بمفتاح اللهى فتح اللها

وهو في رثائه أبلغ عبارة وأعمق معنى.. فعندما تبلغه وفاة الامام فيصل رحمه الله سنة ١٢٨٢هـ يحزن حزنا شديدا.. فيعبر عن لوعته وأساه بقصيدة معبرة لخوفه من تغير الأحوال.. فيقول:

فكم فل جمع لهم جاء صائلا
وأفنى رؤوسًا منهم في الملاحم
يجر عليهم جحفلا بعد جحفل
ويرميهم في حربـه بـالـقـواصم
فما زال هذا دأبه في جهادهم
تـغـير عـلـيـهـم خـيـلـه والتهائم
الى أن أقيم الدين في كل قرية
وأصبح عرش الملك عالي الدعائم

ويهنيء خلفه عبدالله بن فيصل في القصيدة نفسها:

فلما تولى خلف الملك بعده
لـنـجـل خـلـيـق بـالأمـانـة حازم
فقام بعون الله للملك سائسا
رعـيـتـه مـسـتـيـقـظـا غير نـائـم

ولابن مشرف أيضا مطارحات لطيفة نذكر منها رده على قصيدة السيد عبدالجليل الطباطبائي التي بعث بها لأمير الاحساء أحمد بن محمد السديري والتي مطلعها:

بحمد اله يجمع الشمل عطفه
وأيدي النوى عما يرام تحاجز

يقول ابن مشرف:

أنـظـم بـديـع هـذبـتـه الـغـرائـز
ام الدر من أصداف بحرك بارز
نعم در ألفاظ القريض أتى بها
بـلـيـغ لأنـواع الـفـصـاحـة حائز
الى العلويين الكرام قد انتمى
فـي هـاشم أعـراقـه والمراكـز
اذا قال قولا انشد الناس شعره
وغنى به باد وحاد وراجز

وهكذا يكون ابن مشرف قد سجل في سفره حوادث مهمة من تاريخنا خلال فترة من الزمن كادت تكون حلقة مفقودة.. لأن ابن مشرف الذي تسلم منصب القضاء عن جدارة هو الصق الناس بالأحداث. وأعرفهم بالوضع السياسي للدولة في عهده، لذلك جاء شعره تعبيرا عن حركة دولة الامام فيصل بن تركي خلال ربع قرن عاشها الشيخ ابن مشرف عملا واحساسا فعبر عنها أصدق تعبير □



الخوف

بقلم: الاستاذ حسن حسن سليمان / عرعر



محمود! محمود! استيقظ يا محمود! كفاك نوما! الشمس ستغيب وأنت ما صليت العصر بعد! فتح محمود عينيه قليلا ثم عاد فأغمضهما، وعادت زوجته تناديه مرة أخرى، ولم تبرح مكانها حتى انتشلته من أعماق نومه، فجلس في فراشه يفرك عينيه وهو يتثاءب ويتمطى. كان يتمنى لو أنه ظل نائما مدة أطول. ثم نهض، فتوضأ، وصلى العصر. شعر بانتعاش ونشوة كأنما قد تغلغل ماء الوضوء في عروقه فأنعشها ورواها.

وبخطوات وئيدة ثابتة مشى الى الشرفة ليملأ صدره بنسيم الأصيل العليل، وما زال ينتابه شعور بسعادة غامرة ونشاط جم وحيوية زائدة، وهو شيء لم يعهده في نفسه منذ وقت طويل مضى.

لطالما بعثت هذه الشرفة في نفسه دفين الأسى وأثارت فيها كوامن الأشجان. فقد كانت تطل على المقبرة تماما، بل لم يكن يفصلها عنها سوى طريق ضيقة. وكان وقوفه فيها يذكّره بما آل اليه الكثيرون من أقاربه وأصدقائه ومعارفه من مصير محتوم، وبما سوف يؤول اليه هو في يوم من الأيام. وكثيرا ما كانت تسليته وهو يقف في الشرفة أن يستعرض الموتى الراقدين على بعد خطوات قليله منه ممن يعرف من بين هذا الجمع الغفير، حيث تمتد القبور على مرمى البصر. كان يتفقدهم واحدا واحدا ويستعرض ذكرياته ومعلوماته السابقة عن كل منهم، وكانت هذه التأملات تشعره يوما بعد يوم بتفاهة الحياة وضآلة قدرها، وأنه لا شيء فيها يستحق أن يقتل المرء نفسه حزنا وأسى وجزعا من أجله، ما دام معبره في النهاية أن يغيب في باطن الأرض في غياهب النسيان والظلام والعدم. وقد خرج من ذلك كله بفلسفة اتخذها لنفسه وهي أنه لا شيء أقوى من ابتسامة السخرية واللامبالاة لقهر الحياة والانتصار عليها. ولعله لهذا السبب لم يكن يرى الا باشا يبادر من يلقاه بتحية مرحة باسم الثغر، متهلل الوجه كأنه خلي من الأحزان ولا يعرف الهموم والآلام.

وانتبه على وقع خطوات زوجته تحمل له فنجان القهوة، فتناوله شاكرا وهو يقول: حقا! لقد جئت في الوقت المناسب! وراح يرتشف القهوة بشغف وتلذذ وهو يجد لها في فمه مذاقا خاصا هذا اليوم وقد زاده هذا نشاطا وانتعاشا وحيوية.

حتى القبور! لا يجد لها في نفسه تلك الوحشة التي طالما شعر بها من قبل. فهي اليوم ليست سوى مساكن متواضعة جدا لجيران أعزاء على قلبه ممن أحب أو عرف. وأعجبه هذا الخاطر فراح يحدث نفسه بقوله: ليت أبناء قريتي يعرفون ما أحمله لهم من الحب والوفاء! ان صلتي بهم لا تنقطع حتى بعد أن يموتوا!

وشغله منظر الشمس التي تتوارى رويدا رويدا خلف أشجار السرو والصنوبر والصفصاف التي تحيط بالمقبرة، فمضى يمتع نظره بجمال شعرها الذهبي الذي نشرته لتستحم في البحر الغربي. انه اليوم لا يرى في صفرتها لون الموت والفناء ولكنه يرى فيه اشراق الذهب الذي يزين صفحة السماء... وحفيف الأشجار المائسة في وجه النسيم. ليس اليوم كما تعوده من قبل عويلا على الشمس التي تحتضر في آخر النهار ونحيبا على الراقدين من الأموات تحت أقدام الشجر ولكنه كما يحسه اليوم لحن الخلود وسيمفونية البقاء وصلوات وترانيم وتراتيل تستمطر الرحمة والمغفرة على سكان المقبرة.

لم يحدث في حياته اليوم شيء جديد يجعله يحس بكل هذا الفيض من السعادة وهذا الطوفان من النشوة والحيوية ولكنها النفس البشرية في غموضها وغرابة أطوارها هي التي تجعل الانسان يحس أحيانا بالسعادة دون أن يكون هناك سبب مقنع لهذا الشعور وتجعله مرة أخرى يحس بالضيق الى درجة الاختناق ويحس بالكآبة حتى يكاد يبكي دون أن يجد لذلك تفسيرا معقولا. أو تكون له أسباب ظاهرة، كأنما للنفس عالمها الخاص الذي لا يلتزم بقانون ولا يخضع لمنطق من الأسباب والمسببات.

وقطعت جل أفكاره طرقات شديدة على الباب الخارجي، فرد بصوت مرتفع — دون أن يحاول معرفة

من عسى أن يكون الطارق — تفضل ! تفضل ! مضت لحظات. ثم تناهى الى سمعه وقع خطوات على درجات السلم. ولم يلبث أن ظهر الأستاذ عزت بقامته الفارعة الممتلئة، فتلقاه على باب الشرفة بحفاوة بالغة وسرور ظاهر استلفت نظره مما جعله يتساءل وهو يضحك: على مهلك ! على مهلك ! ما هذا كله ! منذ متى كل هذا التواضع والكرم؟ ! ما جرى اليوم؟ ! هل أنت بخير؟ ! فرد محمود وهو يبادله ضحكة صافية مشرقة صادرة من القلب كأنها ضحكة الأطفال: أنا اليوم بكل خير يا عزيزي عزت ! تفضل ! ثم أحضر كرسيين ودعاه الى الجلوس وهو يقول: لقد حضرت في أنسب الأوقات ! كأن الله قد ساقك اليّ ! فقال عزت وهو يصلح من جلسته: خيرا ان شاء الله ! ها أنا قد حضرت ! قل ما عندك ! فقال محمود والابتسامة لا تفارق شفتيه: لا شيء ! ولكني لم أرك منذ مدة فاشتقت اليك ! ألسنا صديقين؟ ! فقال عزت وهو يبتسم: بلى ! ومن قال اننا لسنا صديقين ! ؟

واندمجا في حديث طويل مرح عن مواضيع شتى. ثم توقفا عن الكلام فجأة، وساد الصمت، كأن كلا منهما قد استنفد ما عنده. وقطع الصمت صوت المؤذن يرفع أذان المغرب فرددت صداه جبال القرية ووهادها.

وجم عزت لان ذلك قد ذكره بالظلام الزاحف على القرية عما قليل وبالسكون الذي سيلفها، وبالوحشة والرهبة التي ستملأ طرقاتها بعد أن تهدأ الحركة فيها في مثل هذه الليلة من ليالي أواخر الشهر، ولم يكن شيء أبغض اليه من السير وحيدا في الظلام، فكيف اذا كان ذلك بين القبور أيضا. لم يحدث في حياته كلها أن اجتاز المقبرة ليلا الا برفقة صديق أو واحد من الأهل وعلى ضوء القمر، فكيف يفعل اذا اشتد الظلام وخلت الطريق من المارة ! ان عقله يكاد يطير وقلبه يكاد ينخلع لمجرد التفكير في ذلك.

تململ عزت في مقعده يستعد للانصراف قبل فوات الأوان. ولا حظ محمود ذلك اذ كان يرمقه من طرف خفي بنظرات حادة فبادره قائلا: الى أين؟ ! لن تنصرف قبل أن نتناول عشاءنا معا ! دعنا نقطع شطرا من هذه الليلة بالحديث والسمر ! ألم أقل لك أنني مشتاق اليك !

ذعر عزت وجعل يتذرع الأعذار حتى ينصرف قبل أن يشتد الظلام، وكان محمود يسد في وجهه كل المنافذ، فلم يقبل له عذرا، وأصر على بقائه عنده الى ما بعد العشاء والسهرة، وأكد اصراره بكثير من الايمان المغلظة.

لم يجد عزت أمامه من سبيل للخروج من هذه الورطة، وأيقن أن لا حيلة له في البقاء، فاستسلم للأمر الواقع، وأسلم أمره لله.

كان محمود يدرك تماما ما يجول في خاطر عزت من أفكار، وما يخالجه من مشاعر الخوف، فأخذ يشاغله بالحديث ليسري عنه ويدخل البهجة الى قلبه ريثما يتم اعداد العشاء.

الوقت يمضي سريعا، والظلام يشتد، والحركة قد هدأت تماما على الطريق المؤدية الى داخل القرية عبر المقبرة. وما زال محمود يتجاهل حقيقة ما يجول في نفس عزت، من مشاعر الخوف والقلق والضيق والتوتر فيمعن في اكرامه ويبالغ في الحفاوة به، حتى يمضي من الليل شطر كبير لا يستطيع معه أن يعود الى بيته منفردا. لقد وجد محمود في نفسه رغبة جامحة لم يستطع مقاومتها في ممازحة عزت والعبث معه وهو ينوي في الوقت نفسه أن يصطحبه الى بيته في النهاية، بعد أن يرى ما يكون عليه حاله في هذا المأزق الحرج.

وفي سقيفة قريبة كان حصان يضرب الأرض بقوائمه فتخرج لقيوده الحديدية صلصلة لها وقع غريب في سكون الليل. وكان عزت يصغي بخوف الى تلك الصلصلة دون أن يعرف مصدرها أو يجرؤ على السؤال عنها. وكان محمود يلمح بريق الفزع في عينيه، ولكنه كان يتجاهل ذلك أيضا، بل وكان ينتهز الفرصة ليعمق من هذا الشعور في نفسه فيقول له متخابثا: ما بك؟ هل تخيفك هذه الأصوات؟ ! أما أنا فلا تخيفني ولا أكترث بها ! لقد تعودت عليها منذ بنيت هذا البيت الى جوار المقبرة، اننا نسمع كل ليلة أصواتا أشد من هذه كثيرا فلا تخاف ! الذي يسكن الى جوار المقبرة لا بد أن يسمع أصنافا متعددة من هذه الأصوات ! وهل في المقبرة الا الأصوات والأشباح ! ؟

الساعة تقترب من منتصف الليل، الحصان في السقيفة ما زال يضرب الأرض بقوة بين حين وآخر فتتردد في سكون الليل صلصلة الحديد في قوائمه، وقلب عزت في كل مرة يعلو ويهبط، وأنفاسه تتلاحق، وزاد الموقف سوءا نباح كلب متواصل آت من حافة المقبرة، وعقب محمود على ذلك بخبث قائلا: ان الكلاب تنبح هكذا اذا ما رأت شبحا في الظلام ! ألم أقل لك أن الأشباح كثيرة هنا؟ !

نفذ صبر عزت وما عاد يستطيع احتمال هذا الموقف فنهض مصرا على الانصراف هذه المرة وليكن ما يكون، وصمم في نفسه على عدم التراجع حتى ولو تخطفته الشياطين والمردة من كل جانب على الطريق. لقد تحول اليأس في نفسه الى تهور لا يهمه ما عسى أن تكون عاقبته. ولما رأى محمود اصراره على الانصراف عرض عليه أن يرافقه في الطريق الى بيته لتسليته. وافق عزت على ذلك دون تردد لأنه خشي ان أبدى معارضته أن يعدل محمود عن عزمه فتكون الطامة الكبرى. ولذلك سارع الى الموافقة وارتدت اليه روحه فتنفس الصعداء.

سار الاثنان جنبا الى جنب متلاصقين، فاخترقا المقبرة، ثم دخلا القرية، حتى وصلا الى بيت عزت عبر الدروب المقفرة والأزقة الغارقة في الظلام. ما كانا يسمعان في سكون الليل سوى وقع أقدامهما الذي كان صداه يتردد بين جدران المنازل المتراصة.

ودع عزت صديقه وشكره على حسن ضيافته. كان بوده أن يشكره من كل قلبه على مرافقته له، ولكنه لم يشأ أن يلفت الى نفسه النظر، فآثر الصمت. وتظاهر محمود بأنه لم يفطن الى شيء من ذلك فدعاه الى تكرار مثل هذه الزيارة الممتعة وأعرب له عن سروره بالوقت الجميل السعيد الذي قضاه معه هذه الليلة، ثم تمنى له ليلة سعيدة، وعاد أدراجه الى منزله.

اجتاز محمود الأزقة والطرقات بخفة ونشاط معتدا برجولته وشجاعته حتى وصل الى مشارف القرية حيث تمتد المقبرة على اليمين والشمال في مساحة مكشوفة مرتفعه قليلا عما حولها. لم يكد يمشي بضع خطوات عبر الطريق التي تخترق المقبرة حتى هبت من خلفه ريح خفيفة، ولم يلبث أن سمع وراءه من بين القبور خشخشة.. انتفض كالعصفور، والتفت مذعورا فرأى في الظلام جسما أبيض يطير في اتجاه الريح على مقربة من وجه الأرض من خلفه كأنه يتبعه. قدّر طوله بذراعين وقدر عرضه بذراع واحدة. ولم يستطع أن يتبين حقيقته في الظلام. أسرع الخطى وهو يلتفت وراءه بين لحظة وأخرى. الجسم الأبيض ما يزال يلاحقه وكان يراه يهبط تارة ويرتفع تارة أخرى. تبادر الى ذهنه أنه كفن لأحد الأموات من سكان القبور. خارت قواه ووجد أن ساقيه لا تكادان تحملانه، وأن قلبه قد سقط بين رجليه. تراءت له القبور كلها أشباحا تطارده. تراءى له الشجر حول المقبرة مردة تلوّح له من بعيد وتتوعده بالويل والثبور فأسرع في جريه بأقصى ما يستطيع يخبط خبط عشواء على غير وعي منه وهو لا يكاد يلوي على شيء حتى وصل الى منزله فاندفع الى الداخل وأوصد الباب خلفه باحكام وهو لا يكاد يمسك أنفاسه، ولا يكاد يصدق أنه نجا.

خلع ملابسه على عجل ثم آوى الى فراشه مباشرة. ظل يتقلّب حتى مطلع الفجر، لقد أطار الخوف النوم من عينيه واعترته قشعريرة لم يذهبها عنه دفء الفراش ولا ثقل اللحاف.

ارتفع صوت المؤذن يرفع أذان الفجر فأحس محمود بكابوس ينزاح عن صدره وأحس بدبيب الأمن والطمأنينة يسري الى قلبه فأخذته سنة من النوم لم يصح منها الا في الضحى.

نهض من فراشه متعبا مثقلا كأنه خارج من مرض عضال حرمه النوم عدة ليال. وبعد أن شرب الشاي ارتدى ملابسه ثم خرج الى السوق كعادته في كل صباح لاحضار ما يلزم البيت ذلك اليوم، ونفسه ما تزال مفعمة بالهم والضيق والكآبة.

وعلى مقربة من بيته وجد ورقة جريدة قد علقت بأحد القبور. وقف يتأملها لحظة، ثم ابتسم ابتسامة تبخر معها كل ما علق في نفسه من غم وكآبة، فقد أدرك أن ذلك الجسم الأبيض الطائر الذي كان يلاحقه بين القبور في الليلة الماضية، ما هو الا ورقة جريدة حملتها الريح □

بقلم : د. أبو فـراس النطـافي / أبهـا

تكون الفكرة الجادة — أو بتعبير أدق — الفكرية في الشعر سهلة التناول أو العرض شعرا، كما هي حال الفكرة الغزلية أو الوصفية أو الوجدانية، لذلك نرى أن معظم شعرائنا القدامى أحجموا عن تناول الفكرة الجادة في شعرهم، لأنهم كانوا يؤثرون التعبير السهل الواضح الذي لا يكلفهم جهدا كبيرا.. وهذا لا ينفي وجود شعراء اهتموا بهذه الظاهرة، واستطاعوا التغلب على تناول الموضوعات الفكرية شعرا كزهير والمتنبي وابن الرومي.

وقد استطاع عدد كبير من شعرائنا المعاصرين أن يولوا الفكرة أهمية أكبر بفضل الحرية التي منحوها لأنفسهم حين تخلصوا من قيود القافية، فراحوا يعالجون الفكرة التأملية، والمعلومة الفلسفية في اطار شعري جذاب، بل زادوا على ذلك بأنهم صاروا يعرضون تلك الأفكار من خلال تصويرهم الوجداني، واستبطانهم الذاتي. فكثرت القصائد الفلسفية والتأملية خاصة عند شعراء المهجر كايليا أبي ماضي وميخائيل نعيمة.

وقصيدة «الأسطورة الأزلية» لايليا أبي ماضي مظهر من مظاهر التأمل في الحياة وخفاياها، والنفس البشرية ونوازعها، تلك المطولة التي تصور نقمة الانسان على حظه في الحياة، وسخطه على نصيبه منها مهما أوتي من حظ أو جاه أو مال، فهو أبدا غير قانع بما منح، غير راض بما قسم له، وحتى لو تحقق له ما يريد:

لما وعى الله شكايا الورى
قال لهم: كونوا كما تشتهون

فانه لا يلبث أن يضيق بما كان يطمح اليه، ويتبرم بما كان يتمناه:

لكنهم لما اضمحل الدجى
لم يجدوا غير الذي كانا

فالحكاية ما تزال أزلية، فما يزال كل منهم غاضبا ناقما، ساخطا شاكيا، لم يرض بما كان فيه، ولا يرضى بما صار اليه، ولن يرضى مهما تبدل الحال. وبهذه القصيدة الرائعة استطاع ايليا أبو ماضي أن يستبطن الذات الانسانية ويسبر أغوارها، ويبين سخطه على الأوضاع التي اصطلح عليها الناس، والفوارق التي اصطنعوها، والقوانين التي جعلوها مقاييس لهذه الأوضاع والمظاهر. ولو أنهم نظروا الى الحياة ومظاهرها نظرة واحدة متساوية، وأدركوا وحدة الوجود لتساوى عندهم القبح والجمال والغنى والفقر ولشاعت المحبة، وسادت الطمأنينة، ورضي كل بما أصاب، واستراح الى نصيبه، لأنه حينئذ يرى نفسه جزءا من العالم الكبير، وذرة من ذراته، لأن الوجود وحدة كاملة،

وجوهره واحد مهما تنوعت المظاهر.. ان أبا ماضي يرى أن الحقيقة لا تتغير، ولكن الناس هم الذين يحاولون تغييرها:

هم حدّدوا القبح فكان الجمال
وعرّفوا الخير فكان الطلاح
وليس من نقص ولا من كمال
فالشوك في التحقيق مثل الأقاح
وذرة الرمل ككل الجبال
وكالذي عزّ الذي هانا

والفكرية في الشعر هي التي تعطي القصائد مدى أوسع تنمو فيه الأفكار وتتكامل ويأخذ بعضها برقاب بعض، وتتم فيها الحركات الزمانية والمكانية والذهنية.. فالشاعر الذي ينظر الى موضوعه في لحظة معينة، وما يتركه من أثر في نفسه لا يستطيع أن يمد قصيدته طويلا، لأن الأفكار فيها جامدة لا تنمو ولا تتحرك، وكثيرا ما يلجأ الى أساليب أخرى يخلق بها الحركة ويسد الفراغ، وهو يصل الى ذلك التعويض باقحام المشاعر الجزئية الجانبية في قصيدته، والاكثار من الصور والتشبيهات والعواطف المعزولة عن الصور الأخرى ولكن كثرة الأوصاف المتتالية تصبح مملة متعبة حين لا تتخللها ذروة عاطفية تثير حماسة القاريء، فكل بيت منفصل عما حوله قائم بذاته، حتى لنستطيع اذا أردنا أن نقدم بيتا على بيت، وأن نحذف بيتا هنا وبيتا هناك دون أن تنقص القصيدة نقصا مخلا. فالقصيدة تتركب من جزئيات مرصوصة، لا من وحدة كاملة مشدودة كما هي الحال في القصائد التي تصف أحداثا.ومن مجموعة الأبيات هذه لا تنشأ فكرة عامة غير التي وردت في كل بيت ولا يصعد الشعور الى قمة، لأن العاطفة في القصيدة موزعة على الأبيات بالتساوي.

في حين أن القصائد التي تتحرك في نطاق الزمان والمكان أو الذهن، تحتل حيزا واسعا، فالأشخاص يتبدلون، وتتقلب عليهم الأحداث بحيث نجدهم في أول القصيدة يختلفون عنهم في آخرها على وجه ما، والأشياء تتغير قيمتها ومدلولاتها وأماكنها، والزمن ينصرم، فاذا بدأت القصيدة في طفولة بطلها انتهت وهو شيخ، وخلال ذلك تتغير المشاعر فتمتد وتضيق كما يرسم لها الشاعر. وفي مثل هذه القصائد نجد أن لكل كلمة أهمية كبيرة في بناء القصيدة ونموها، فهي ترتبط بما قبلها وبما بعدها بصلات لا تسمح بحذفها أو تقديمها أو تأخيرها، كما أن الأحداث تميل الى أن تتكاثف في مكان من القصيدة دون مكان، وكأن الشاعر يمر بفترة العرض التي يمر بها القصاص، وهمه الأول أن يقدم أطراف الموضوع لقارئه، ثم تأتي لحظة تندفع خلالها المشاعر والأحداث الى قمة شعورية، وتبلغ القصيدة أعلى مراتب التوتر، ويحس القاريء أنه ازاء عقدة فنية، وسرعان ما تبدأ النهاية بعد ذلك حين يبدأ الشاعر بحل العقدة وتشتيت القوى المتجمعة.

وأحيانا تكون الحركة ذهنية لا تحتاج الى زمان أو مكان تتحرك فيهما، وأكثر ما ينجح هذا الشكل في القصائد التي تحتوي على فكرة يناقشها الشاعر بالأمثلة المتلاحقة كما في قصيدة «الأسطورة الأزلية» التي كانت مدار حديثنا في بداية هذا الموضوع حيث ينتقل الحديث فيها على لسان الشاعر من الفتى الى الشيخ، ومن الحسناء الى القبيحة، ومن الغني الى الفقير، ومن الأديب الى الأبله، ليرسخ الفكرة التي يناقشها في الأذهان، ويبين —دون أن يحتاج الى استعمال الزمن— أن كل انسان يشتكي من وضعه، والدليل أننا نستطيع أن نقدم شكوى أي واحد من أولئك المتظلمين على شكوى غيره دون أن تضطرب القصيدة أو يتغير مدلولها العام، وهذا ما لا يمكن أن نصفه في قصيدة تعتمد على الحركة الزمانية والمكانية كقصيدة «النهر المتجمد» لميخائيل نعيمة، فهي تبدأ بسؤال النهر عن سر كآبته وجموده بعد أن كان فرحا منطلقا:

يا نَهْرُ هل نضبتْ مياهك فانقطعتَ عن الخرير
أم قد هرمتَ وخار عزمك فانثنيتَ عن المسير
بالأمس كنت مرنّما بين الحدائق والزهور
واليوم قد هبطت عليك سكينة اللّحد العميق

وهنا يتذكر الشاعر أنه كان يأتي النهر باكيا، فيرده ضاحكا مسرورا، فماذا جرى هل جمدته كآبة الشاعر؟ أم أن المصائب التي أخرست الشاعر قد أخرسته هو الآخر؟

بالأمس كنتُ اذا أتيتك باكياً سليتني
واليوم صرتُ اذا أتيتك ضاحكا أبكيتني
هل هذه الأكفان؟ أم هذي قيود من جليد؟
قد كبلتك وذلّلتك بها يدُ البرد الشديد

ويأخذ الشاعر في وصف الصور الكئيبة التي تحيط بالنهر:

ها حولك الصفصاف لا ورقٌ عليه ولا جمال
يجثو كئيبا كلما مرت به ريحُ الشمال

ثم يعزيه بالربيع الذي سيفك قيوده، ويعيد جريانه، فيسترد حريته وابتسامته حيث يزدهر الصفصاف من حوله، وتغرد الطيور على شطآنه، ويلاطفه النسيم، وتسبح في موجه النجوم:

يا نهر ذا قلبي أراه كما أراك مكبّلا
والفرق أنك سوف تنشط من عقالك و«هو» لا

فالانتقال من بيت الى بيت انتقال طبيعي، يتسق مع الجو الشعوري العام للقصيدة بحيث يصل القاريء الى آخر بيت فيها، وقد أحس أن الشاعر قد أفرغ تجربته كلها في جو شعوري واحد، لا فراغ فيه، ولا اضطراب □

التّصْنيف الصّوتي للحُروف في ك

الشـــدة والرخـــاوة

في العنوان الذي وضع للباب، نجد ذكرا لبعض ما يرد في الباب، أما الأشياء الأخرى التي ترد ضمنه، فهي انما تأتي مكملة، أو لعلها كذلك. يقول سيبويه: «هذا باب عدد الحروف. ومخارجها، ومهموسها ومجهورها، وأحوال مجهورها ومهموسها، واختلافها»(١). يصرح بهذا بأن الباب يتناول عدد الحروف، ومخارجها، والمهموس والمجهور ثم أحوال المجهور والمهموس، ولا يلمح الى الشدة والرخاوة، ولا الى الاطباق والانفتاح، ولا الى صفات أخرى، أفتكون هذه الصفات هي أحوال المجهور والمهموس؟ ان ظاهر عبارات سيبويه أو معاملته للصفات يؤكد أن الجواب بالايجاب.

اضافة هذه الصفات الى المهموس والمجهور معا، تشعر بأنهما يشتركان في الصفات، وهذا ما يلاحظه الباحث اذا أراد أن يطبق تلك الصفات على المهموس والمجهور فالشدة عند سيبويه تتصف بها حروف مهموسة وأخرى مجهورة، فنجد أن من الحروف المجهورة عشرة حروف شديدة، ومن المهموسة حرفان شديدان، وكذا الرخاوة، فهي في خمسة حروف مجهورة، وثمانية حروف مهموسة. معنى هذا كله أن الشدة ليست مقصورة على المجهور، وان كثرت فيه، ولا الرخاوة مقصورة على المهموس وان كثرت فيه.

وقبل أن نعرض الى ذكر الحروف الشديدة والرخوة عنده، يجب أن نوضح ما يقصده سيبويه من الشدة والرخاوة، فالشدة صفة لبعض الحروف التي يقول عنها: «ومن الحروف، الشديد وهو الذي يمنع الصوت أن يجري فيه»(٢). وليس يمنع الصوت غير ما يعترضه في المجرى الهوائي من عوائق، وهذا ما يقصده سيبويه من منع الصوت، ونفهمه من قوله في وصف اللام، وهي شديدة عنده، يقول عن هذا الحرف: «ليس كالرخوة، لأن طرف اللسان لا يتجافى عن موضعه»(٣)، وكذلك الميم، يقول في سياق حديثه عنها: «واللسان لازم لموضع الحرف»(٤).

فاذا كان امتناع الصوت هو ما وصفه سيبويه، فما هو جريان الصوت في الحرف؟.. نجد تفسير ذلك في قول سيبويه نفسه، فهو يقول: «وذلك أنك لو قلت: الحج ثم مددت صوتك لم يجر ذلك»(٥). ونخلص من هذا الى أن الشديد من الحروف هو الذي لا يمتد اذا مددناه لامتناع الصوت من الجريان.

الشدة عند سيبويه لها مظهران، المظهر الأول هو قيام حواجز تمنع الصوت، ومكان لقاء هذه الحواجز هو موضع الحرف. فاذا كان الاقفال محكما فان هذا الوضع الفسيولوجي هو مظهر من مظاهر الشدة، وهو المظهر المهم عند سيبويه. والمظهر الثاني هو امتناع الصوت، بحيث لا يمكن مده كما مثل سيبويه، وهذا المظهر أقل أهمية من السابق عنده، لأنه قد لا يتحقق لسبب من الأسباب التي يذكرها سيبويه نفسه، حينما يعرض لبعض الحروف، التي هي شديدة، لأن الأعضاء التي تلتقي في موضعه محكمة وهذا يحقق المظهر الفسيولوجي، ولكن الصوت يجري ويمتد، لا يعني هذا الامتداد أن الصوت رخو. ولعل هذا التمرد الذي أظهرته بعض الحروف الشديدة جعله لا يثبتها مع الشديدة حينما عددها، وانما وصفها بعد ذلك بصفات خاصة تميز كل واحد منها مع أنها شديدة كلها.

أما الرخاوة — وهي الصفة المقابلة للشدة — لم يعطها سيبويه من عنايته ما أعطاه للشدة، لأنه قد يكتفي بتعريف شيء ليتميز ما يقابله، فالرخاوة مقابلة الشدة، ويعني ذلك، أن اللقاء بين الأعضاء التي تؤلف الصوت لا يكون محكما يمنع الصوت حتى يستحيل مده، بل ان الصوت يسهل مده لمن أراد المد، وهذا ظاهر عبارة سيبويه، التي يقول فيها: «وذلك اذا قلت: الطس، وانقض، وأشباه ذلك، أجريت فيه الصوت ان شئت»(٦) نستطيع القول اذن أن للرخو مظهرين، الأول هو ضعف الاحكام وهذا هو المهم، والثاني هو امكان مد الصوت، ذلك أنه ليس كل ما مد من الحروف رخو، فاللام والنون والميم كل أولئك ممتدة، وهي شديدة عند سيبويه، لأن الأحكام شديد في مواضعها.

ولعل الأولوية عند سيبويه للشدة، ذلك أنه فصل في الشديدة، وجعل لها مظاهر معينة، وحاول أن يعلل لبعض الحروف، كاللام مثلا — التي لا تنطبق عليها المظاهر كلها، وكان يستطيع أن يعدها رخوة ولكنه آثر أن يعدها شديدة رغم جريان الصوت فيها. والى ما ذكر من الأولوية، لعله وجد الالتقاء بين أعضاء النطق في موضع الحرف محكما وهذا الوضع الفسيولوجي هو الأساس في الشدة، والوضع الفسيولوجي هو الذي يفرق بين الشديدة والرخوة. فاذا كان اللقاء محكما فالحروف شديدة واذا كانت أقل احكاما تكون رخوة، واذا صار الانفتاح، أي اتساع مجرى الهواء أوسع من ذلك فتكون حروف اللين. وهذا ما سيفصل في حينه.

يلذ لبعض المحدثين أن يجدوا عند سيبويه ما يجدون في الدراسات الصوتية الحديثة من مفاهيم. ولكن المفاهيم لا تكون منطبقة الانطباق كله لما عند سيبويه، ويعطي المحدثون أنفسهم الحق في أن يفهموا من كلام سيبويه ما أرادوا فهمه من أفكار تكون جاهزة في أذهانهم لا تحتاج الا الى القليل من حسن التصرف لتؤدي وظيفتها. فابراهيم أنيس مثلا يقول في معنى الشدة والرخاوة عند سيبويه: (يقول سيبويه: «الشديد هو الذي يمنع الصوت أن يجري فيه» وهذا هو الانحباس المؤقت الذي نحس به في مخرج الحرف لحظة قصيرة جدا بسبب التقاء العضوين التقاء محكما، فاذا انفرجا فجأة سمعنا ما يسمى بالصوت الشديد،

ـتاب سيبويه

بقلم: الاستاذ ابراهيم الشمسان/القاهرة

وما يسميه الأوروبيون بالصوت الانفجاري»(٧).

والصوت الانفجاري هو الصوت الذي ينحبس ثم ينطلق وكأنه ينفجر، ولم يلاحظ أنيس أن سيبويه لا ينظر الى ما يحدث للصوت، وانما يناقش الحرف بالمعنى الذي يفهمه سيبويه ولا يرادف معنى الحرف معنى الصوت مرادفة تسمح بتجاهل الفرق بينهما، ولا ينظر الى ظاهرة الانفجار وانما الى ملابسات خاصة تحدث عند اجراء الحرف وهذه الملابسات هي الوضع الفسيولوجي الذي يتم به لقاء بعض الأعضاء لأعضاء أخرى لقاء محكما، سواء انفجر الحرف بعد ذلك أم لم ينفجر، وعدم انفجار بعض الحروف الشديدة عنده دعاه الى عزلها ووصفها بصفات خاصة، ولكنه أكد أنها شديدة وعلل لتسرب الهواء وامكان مد الحرف وكل هذا خشية أن يظن أحد أنها رخوة.

نخلص من ذلك كله الى أننا لا نستطيع أن نقول: ان مصطلح «شديد» يساوي مصطلح «انفجاري» ولكن رغبة بعض المحدثين أو توهمهم هذا يدفعهم الى افتراض المساواة أو المرادفة، ثم يناقشون أوجه الخلاف عند التطبيق، والخلاف وارد لاختلاف المحتوى العلمي للمصطلحين. على أن أنيساً لم يحاول مناقشة ما جاء عند سيبويه بل اكتفى بذلك التقرير، ونجده في موضع آخر يتحدث عن اللام والنون والميم والراء يقول: «على أنه رغم التقاء العضوين مع بعض الأصوات قد يجد النفس له مسربا يتسرب منه الى الخارج وحينئذ يمر الهواء دون أن يحدث أي نوع من الصفير أو الحفيف ويلاحظ هذا مع اللام والنون والميم والراء. ولعل هذا هو الذي دعا القدماء الى تسمية هذه الأصوات الأربعة بالأصوات المتوسطة، أي التي ليست انفجارية ولا احتكاكية.

«والمحدثون من علماء الأصوات قد برهنوا بتجاربهم على أن هذه الأصوات الأربعة تكون مجموعة خاصة لا هي بالشديدة ولا الرخوة وسموها الأصوات المائعة. أما تسميتها بالأصوات المتوسطة فليست تعني أكثر من أنها تخالف النوعين، أي أنها ليست بالشديدة ولا الرخوة. وقد زاد القدماء على هذه الأصوات الأربعة «العين» فعدوها صوتا متوسطا أيضا»(٨). لعل أنيساً لو سئل عن القدماء الذين سموا هذه الحروف بالمتوسطة لقال: انهم ابن جنى، ذلك أن سيبويه لم يسمها بهذا الاسم على الأقل وهو من القدماء، والذي يرجع الى سر صناعة الأعراب يجده يقول: «وللحروف انقسام آخر الى الشدة والرخاوة وما بينهما»(٩). ولم ينص على أنها متوسطة غير العنوان المركن قبل الكلام ولا أدري أهو من عمل ابن جنى أم المحققين هكذا (الشديد والرخو والمتوسط) والذي يغلب على ظني أنها من عمل المحققين ولم يشيروا الى أن العنوان من وضعهم.

وقد وقع في هذا التعميم أيضا كمال محمد بشر(١٠) ونسب مصطلح متوسطة الى العلماء القدماء، وهو يعتمد على ما ورد عند ابن جنى على أنه ممثل للعلماء القدماء، ولكن هذا تعميم غير جيد.

وأحب أن أقرر هنا أنه ليس من الضروري أن يكون سيبويه قد عرف ما عرفه المحدثون، فله ملاحظاته الخاصة ومقاييسه الخاصة التي يجب مراعاتها عند مناقشة تطبيقاته، فما يفهمه من الشدة ليس مرادفا لما يفهم من الانفجار.

من الصفات التي يذكرها سيبويه: اللين، ويطلقها على ثلاثة حروف هي الألف والواو والياء ولا يبين أشديدة هذه الحروف أم رخوة، وانما سكت عنها، فهل تكون مقابل للشديدة والرخوة؟ أم هي داخلة في الرخوة؟ لا يصرح بشيء من هذا، ولكن طريقته كما رأينا في الهمس والجهر، وكما سيمر في الاطباق والانفتاح أن الصفات تستغرق الحروف كلها، أما في الشدة والرخاوة نجد أن اثنى عشر حرفا شديدة، وثلاثة عشر حرفا رخوة، وواحدا بين الشدة والرخاوة، ولم يبق غير ثلاثة هي الألف والواو والياء وسماها لينة.

أقسام الحروف حسب الشدة والرخاوة واللين

أولاً: الحروف الشديدة

أ— شديدة لا يجري الصوت فيها وهي: أ، ق، ك، ج، ط، ت، د، ب.

ب— شديدة يجري الصوت فيها لعلة:

١) اللام: ويسميها (المنحرف) ويصفها بقوله: «ومنها المنحرف وهو حرف شديد جرى فيه الصوت لانحراف اللسان مع الصوت، ولم يعترض على الصوت كاعتراض الحروف الشديدة وهو اللام وان شئت مددت فيها الصوت وليس كالرخوة لان طرف اللسان لا يتجافى عن موضعه، وليس يخرج من موضع اللام ولكن من ناحيتي مستدق اللسان فويق ذلك»(١١).

٢) النون والميم: يقول عنهما: «ومنهما حرف شديد يجري معه الصوت لأن ذلك الصوت غنة من الأنف فانما تخرجه من أنفك واللسان لازم لموضع الحرف لأنك لو أمسكت بأنفك لم يجر معه الصوت وهو النون وكذلك الميم»(١٢).

٣) الراء: ويسميها سيبويه (المكرر)، ويصفها بقوله: «ومنها المكرر وهو حرف شديد يجري فيه الصوت لتكريره وانحرافه الى اللام فتجافى للصوت كالرخوة، ولو لم يكرر لم يجر الصوت فيه وهو الراء»(١٣).

ثانياً: الحروف الرخوة

وهي: الهاء، والحاء، والغين، والخاء، والشين، والصاد، والضاد، والزاى، والسين، والظاء، والثاء، والذال، والفاء.

التصنيف الصوتي للحروف في كتاب سيبويه

ثالثاً: حرف بين الشديدة والرخوة

وهو (العين) يقول عنه سيبويه:

«وأما العين فبين الرخوة والشديدة تصل الى الترديد فيها لشبهها بالحاء»(١٤).

رابعاً: الحروف اللينة

المكتوب عن هذه الحروف في النسخة التي طبعتها مطبعة بولاق من كتاب سيبويه مضطرب لسقوط بعض الكلمات أو بعض الجمل. ولا تسعفنا المادة الموجودة عند سيبويه للتعرف تعرفا دقيقا على ما يقصد بالحروف اللينة. واللين المصطلح غامض الدلالة لنا الآن لتطور دلالته في كتب النحو واللغة. ويبدو — وهذا فرض — أنه كان يدل على مفهوم شائع بين العلماء يطلق على حروف العلة، ولربما — ولست متأكدا من ذلك — أنهم كانوا يطلقون (العلة) على الصفة الصرفية، و(اللين) على الصفة الصوتية، والذي يدعوني الى هذا الفرض هو أنه لم يشر الى أحوال هذه الحروف المختلفة هذه الاشارة التي قد نجدها عند المتأخرين.

ويقسم سيبويه الحروف اللينة فيما (يستشف) من عباراته على قسمين:

الواو والياء

يقول عنهما: «ومنها اللينة وهي الواو والياء لأن مخرجها يتسع لهواء الصوت أشد من اتساع غيرهما وأي والواو (؟) وان شئت أجريت الصوت ومددت»(١٥).

الألف ويسميه (الهاوى)

«ومنها الهاوى وهو حرف لين اتسع لهواء الصوت فخرجه أشد من اتساع مخرج الياء والواو لانك قد تضم شفتيك في الواو وترفع في الياء لسانك قبل الحنك وهي الألف»(١٦).

ويقول عن هذه الحروف كلها: «وهذه الثلاثة أخفى الحروف لاتساع مخرجها وأخفاهن وأوسعهن مخرجا الألف ثم الياء ثم الواو»(١٧).

الاطباق والانفتاح

هذا هو التقسيم الثالث للحروف عند سيبويه. وتنقسم عنده الى قسمين:

١) مطبقة وهي: الصاد، والضاد، والطاء، والظاء.

٢) منفتحة وهي: سائر الحروف.

يصف المطبقة بقوله

«اذا وضعت لسانك في مواضعهن انطبق لسانك من مواضعهن الى ما حاذى الحنك الأعلى من اللسان ترفعه الى الحنك فاذا وضعت لسانك فالصوت محصور فيما بين اللسان والحنك الى موضع الحروف» (٤٠٦/٢).

الاطباق اذن هو وضع فسيولوجي معين تتكون به حجرة رنين خاصة تختلف عن سائر الحروف، واللسان يقوم بمهمة اضافية غير حبس الهواء في مخرج الصوت وهي حصره في منطقة معينة من الفم، ويعبر سيبويه عن هذه الوظيفة المزدوجة بقوله عن الحروف المطبقة:

«فهذه الأربعة لها موضعان من اللسان وقد بين ذلك بحصر الصوت (٤٠٦/٢). وبخلاف هذا المنفتحة، ويعلل تسميتها بذلك بقوله:

«لأنك لا تطبق لشيء منهن لسانك ترفعه الى الحنك الأعلى» (٤٠٦/٢) ولذا فان المنفتحة يتم حبسها بالتقاء اللسان أو غير اللسان مع عضو آخر في المخرج. مثال ذلك ما في قول سيبويه:

«وأما الدال والزاى ونحوهما (من المنفتحة) فانما ينحصر الصوت اذا وضعت لسانك في مواضعهن» (٤٠٦/٢).

ثم يضيف سيبويه ملاحظة مهمة جدا وهي قوله:

«ولولا الاطباق لصارت الطاء دالا والصاد سينا والظاء ذالا ولخرجت الضاد من الكلام لأنه ليس شيء من موضعها وغيرها» (٤٠٦/٢).

ومعنى هذا أن الاطباق قد خلق أصواتا جديدة أو حروفا من غيرها، فالطاء دال مطبقة، والصاد سين مطبقة، والظاء ذال مطبقة، ولولا الاطباق لم يكن ثمة ضاد لأنها رغم الاطباق فهي ليست مشتركة مع غيرها في مخرجها. أما الضاد التي ينطق بها المحدثون فهي دال مطبقة*. ويمكن أن نقرب فكرة سيبويه بهذا الجدول المبسط: □

حرف مطبق	ط	ص	ظ	ض
حرف منفتح	د	س	ذ	—

(١) سيبويه. الكتاب. ٤٠٤/٢.
(٢) سيبويه. م. ن. ٤٠٦/٢.
(٣) سيبويه. م. ن. ص. ن.
(٤) سيبويه. م. ن. ص.ن.
(٥) سيبويه. م.ن. ص.ن.
(٦) سيبويه الكتاب. ٤٠٦/٢.
(٧) ابراهيم أنيس. الأصوات اللغوية. ص١٢٦.
(٨) ابراهيم أنيس. الأصوات اللغوية. ص ٢٤. ٢٥.
(٩) أبو الفتح عثمان بن جني. سر صناعة الاعراب. ص ٦٩.
(١٠) كمال محمد بشر، علم اللغة العام الاصوات. ص ٩٨. ٩٩.
(١١) و(١٢) و(١٣) و(١٤) سيبويه. الكتاب. ٤٠٦/٢.
(١٥) سيبويه. الكتاب. ٤٠٦/٢.
(١٦) سيبويه. م. ن. ص.ن.
(١٧) سيبويه. م.ن. ص.ن.

* عند المصريين والشاميين. أما النجديون والعراقيون فقد صارت عندهم ظاء حتى خلطوا في الاملاء في كتابتها، وهذا الخلط قديم دعا الى تأليف كتب في هذا الشأن.



كان انسان الكهف يحفظ طعامه أثناء الشتاء بتدخينه وتجفيفه.



منارة مسجد قديم تحولت الى برج أجراس كما تحول
المسجد الى كنيسة، وكلاهما اليوم مهجور.